قلب مُترِّم

قلب مُترّمِم

رواية

مـصـطفى ربـيع

إهداء

«إلى تلك التي كُنت لها قصة في مجرد كتاب حتى أفنَتني.»

ليس من الضروري أن تكون الذكريات مؤلمة حتي

تُبكينا، أحيانًا يكون بُكاؤنا اشتياقًا لأصحابها؛

لذلك تبقى الذكريات قصصًا صامتة تركت بقلوبنا

أثرًا لا يزول.

مقدمة

عزيزي القارئ:

أنصحك ألا تكمل قراءة؛ فلن تستفيد شيئًا.. اتبعتَ هواك وأكملت؟.. أأكملت؟.. حسنًا، سأخبرك شيئًا هامًا اعتبره نصيحه للأبد.. «لا تكن فضوليًا حتى لا تمرض».

أوصلتَ لدرجة من الاكتفاء الذاتي؟ عندما تجد كُلّ من حولك ما هُم إلا أوراق! أشخاص ليس بمقدرتهم سوى أن تكون أولوياتهم وحياتهم أهم ما قد يصِلون به من طموح، حتى لو كان على حساب ما تسميه أنت عادات وتقاليد، أو كرامة وعفة، حسنًا؛ فأنت الآن تسأل نفسك لماذا ولِمَن كُل تلك الكلمات؟ ستعرف لاحقًا؛ فكما كان اتفاقي معك «لا تكن فضوليًا حتى لا تمرض».. حسنًا، دعنا نقول أن الإنسان ما هو إلا ردة فعل لأفعال الآخرين، ردة فعل تكون كافية نوعًا ما؛ فالإنسان ما إن خطّط لهدف ما في حياته، سواء كان تافهًا أو هامًا، فيكون عقله تزيّنَ بتلك الفكرة ولم يرَسواها، فلَمْ يكن أمامه سوى خيارين.. إما بالاستسلام أو العيش مثله مثل ما في المجتمع، ليس لديه قدرة على تعديل حياته وتغيّرها، ما يسموهم بمستسلمي الواقع.

أما الاختيار الآخر: وهو المغامرة، خوض تجربة السباق والمغامرة

بنفسه، ويكون على أتم استعداد أن يتقبل خسارته؛ فهو يتفهم ويتقبل فكرة ألّا نجاح دون تنازلات أو هزيمة؛ فبذلك يزداد معرفته ويزداد إدراكه لذاته ولمن حوله أيًا كانوا، أصدقاء، أحباب، حتى الدائرة الأُسَرية له. فالاكتفاء هنا لا يعني عُزلتك أو تقبل خسارتك، فتقبلك للهزيمة هنا تعني أنك قد وصلت لقمة الفشل واليأس!.. قد أقول عنك أنك الآن يا صديقي في الدركِ الأسفل من الاستياء. حسنًا دعني أقول رأي ما هو إلا تعقيد وتشابك داخل عن تلك الندوب التي لا يراها سوى الشخص لنفسه فقط. فهم يقولون عَني أنني مُنعزل، انطوائي، كئيب في بعض الأحيان، على الرغم من أنني أقسم ألا يوجد شخص مَرِح ومسامح ومبتسم دائمًا مثلي، ولكنه الزمن يا صديقي، فالزمن هو ما يرغمنا دائمًا على التغير، سواء كان لأحسن أو لأسوء.

إنك الآن عزيزي القارئ خطوتَ أول خطوة إلى سُلَّم الصعود، إلى أي مدي سيصل الإنسان لإدراكه واكتفائه بنفسه؟ فالإنسان على الرغم من تعليمه عاليًا كان أو متوسطًا كان أو منخفضًا، فالشخص دائمًا ما تُعلّمه المواقف، فقط دَع الأيام تعلمك وتعلم أولادك، ولكن كُن حذِرًا... فالانخراط في هذه البُقعة من العدم والوجود لا يتطلب منك سوى إيمانك بذاتك، كُلٌّ منا لديه تجارب ومواقف كانت هي موطن التكوين الداخلي والخارجي للشخص، وهو بذلك يتغير كليًا، وتتغير أحاسيسه من موقف للآخر، هنا الكلمة العُليا للأنا العليا للإنسان، ولكن أأدركتَ ولو لمرة ما معنى تلك الخسائر التي أُتمِمت في حياتك؟ فأشخاص قد يفقدون أحبابهم ويكون هذا الفقد لديهم أكثر أنواع الخسائر والفقدان حُزنًا، ولكن هيّا قف أيها القارئ؛ فالعالم لم يتوقف لِبُكائك؛ فالعالم لم يتوقف ليواسيك ويكون بجانبك، هيا

قِف واستند بنفسك ولنفسك؛ فهي باقية بقاء روحك، فأنت تُرهق روحك وتهلكها، فإنني أرى أن للحزن حق علينا، وحقه أن نعطيه ما يكفيه فقط، حتى لا ينتهي الأمر بانتهائنا شخصيًا، فأنت قوي؛ لأنك لازلتَ تحتفظ بما تبقّى من طاقتك المستنزفة، لأنك تحاول أكثر من مرة إلا أن تتوقف حينئذ، يمكنك القول بأنك مستسلم، طالما أنك تحاول أنت لم تفشل بعد، حين تقع وتنكسر وتقف سريعًا تداوي جروحك -هنا يكمن النجاح- أنت لم تفشل طالما تسقط وتنهض في كل مرة لترمّم ذاتك.. أقِم انهيارك لتكن أقوى... لأجلك.

فهيا قِف على قدميك لترى ذاتك وإمكانياتك، قف وأعطي لنفسك ورقة وقلم!.. ثم ابدأ بالكتابة.. بكتابة ماذا؟! كتابة حلمك يا صديقي؛ فهي تبدأ دائمًا بورقة وقلم، فلا تقم سوى بالكتابة فقط، فلا تقم بتقييم وتحليل حالتك وأفعالك السابقة، ابدأ الآن وكُن لما هو بعد الآن... فجميعًا مَرّ بهذا الخذلان، بهؤلاء الأصدقاء الذين ما هُم إلا أوراق أشجار قذفتها الرياح؛ فلماذا تلومُ الرياح بينما هم كانوا أوراقًا؟... ثم ابدأ باستغلال كل هذه الجروح، وعلاقاتك السابقة الفاشلة واختياراتك التي ستدرك لاحقًا خطأها من عدمه، ابدأ مثلي... دعني أقول لك أنا أحاول مثلك؛ أحاول أكون بنفسي ولنفسي، ولكن للوصول لهذه المرحلة ما عليك سوى التضحية أولًا، وإلا فستكون أنت الضحية؛ فهذه الحياة عليك بالتضحية والخسارة لأجل الوصول! حسنًا أتتذكر كلامي السابق أم كُنت مثلهم تقول عنّي معتوهًا، كئيبًا، ويائسًا، أم تقول أنني حكيم؟ أو أنني فأر تجارب؟! حسنًا.. إن كنتُ حكيمًا فأشكرك بسبب لُطفك، وإن كنتَ تقول أنني فأر تجارب فأنا

أشكرك أيضًا؛ فحتمًا الفئران تتعلم، ولكن كما ذكرتُ سابقًا عزيزي القارئ؛ فأنا أكثر تعقيدًا وعُمقًا حتى مما أبدو عليه أمامك؛ فأنا لازلتُ أنصحك بعدم القراءة؛ فالفضول قاتل، ولكنك الآن قد وصلت لثاني درج من سلالم الصعود!.. أما الآن أمامك اختيارين لا ثالث لهما؛ فمن حقك الاختيار بينهما الآن فقط وليس في وقت آخر، إما بالانسحاب وتقبل هزيمتك أمامي وأمام ذاتك، أما الآخر فعليك بالمغامرة والاستمرار معي، فقط لا أطلب منك سوى أن تكون صبورًا، فقط تذكّر أن الفشل جزءٌ من النجاح، كما ذكرتُ عليك بالاختيار الآن.

* * *

أولًا أشكرك لأنك لازلت معي...

لكن لا تكن على عجلة من أمرك؛ فأنا لا زلت أكتب لك وعنك، أمستعد؟ أما أنا على الرغم من تقلباتي واضطرابي الآن ومزاجي السيء إلا أنني تزداد رغبتي بالحديث، ففي حديثي أدعو ألا أُهزَم أمام الذكريات، أمام الوعود، أمام أشباه الأصدقاء، أمام شخصي؛ فأنا لا أتقبّل الهزيمة سوى لأنها النهاية؛ لأنه لا يوجد حلٌ آخر غير الفراق أو التوقف عن خط النهاية، فربما قد تفعل كل ما بوسعك دون جدوى؛ فأنت في نهاية المطاف ستصل لنهاية الأشياء حتمًا، ولكن دعني أقول لك شيئًا.. «فنهاية الأشياء ما هي إلا بداية لأشياء جديدة»، فحتى نهاية موتك ونهاية عمرك وروحك ومن ثم تبدأ رحلة جديدة، وهي رحلتك مع الخالق.

«الصامتون هُم أكثر الناس حديثًا، ولكن مع أنفسهم»

مصطفى ربيع

أكنتَ يومًا غارقًا في بحر همومك؟! حسنًا... نحن جميعًا في بعض من الوقت نكون كذلك، ولكن أنا لستُ ذلك الشخص.. لستُ ذلك الذي يكون متأثرًا بالخذلان، متأثرًا بذلك الكسر الذي بداخلي، أتعلم؟ أنا أنهض من سريري كل يومٍ وأتظاهر أنني بخير، ثم أعود للنوم في نهاية اليوم.

إنه لأمر قاسي أن تتعوّد على ذلك، أوصلتُ لدرجة اللا شعور؟ ألا يكون فارقًا شيئًا معكَ، أصبحتُ لا أشعر بالألم من كثرة الخذلان يا صديقي؛ فتلك الأشياء الغير ظاهرة على شكلي ولكنها في الحقيقة قد دمرت نفسيتي، كُنت بين اختيارين لا يوجد بينهما ثالث؛ إما أن أموت من تلك الوحدة التي تعتبر أنها أمي الثانية، أو قد تكون عشيقتي.. زوجتي التي لا يعلم بها أحد، وإما أن أحاول تغيير طبائعي وطريقتي حتى أستطيع كسب الأصدقاء.. التي لم أقدر على معرفتهم أكثر من يومٍ، أو بمعنى آخر كان ما بيننا لا يتجاوز حد الموقف القائم في ذاك الوقت فقط؛ فلا أحد يشاركك فيها؛ فالحزن والانكسار لك وحدك، أمَرَّ عليك يومًا أحد المارَّ وقال لك أعطِني حُزنك أحمله بدلًا عنك؟! لا يحدث ذلك حتى إن كانت كلمة!.. كلمة تكفي لتخفيف ما بيننا وما بداخلنا، ولكن ذلك لم يحدث أبدًا.. شكرًا لذلك الخذلان، شكرًا لذلك الألم الذي جعل منا أشخاصًا لا نهاب من قُرب أو بُعدِ أحد، أصبحنا الآن أشخاصًا أحياء أموات، شكرًا لتلك الذكريات الدائمة التي لا تنسحب يومًا من الذاكرة، شكرًا لكم أيها السادة؛ فلولا تلك الصدمات ماكُنا نحن الآن.. ماكنا أقوياء، فلم يكن الأمر عاديًا كما تظن، ثم أنك تستمر

بالعزلة؛ لأنك مشمئز من هذا العالم؛ فتقرأ الكتب وتسرح في الموسيقى وتطيل في النوم وتهرب لأبعد الحدود؛ فعندما تكون حزينًا تبحث عن الحزن في كل شيء، في الأغاني والكتب والاقتباسات، تريد أن تطمئِنّ أنك لستَ وحدك الحزين، وكأن حزن غيرك مواساة لحزنك. فقط تذكر أن قبل الرحيل سيحاولون أن يجعلوك مشتتًا ومُشكّكًا في ذاتك.. سيحاولون أن يزيحون أخطاءهم وعيوبهم عليك لتشعر أن العيب والخطأ في الأصل آتٍ منك. إياك وتصديقهم؛ فلا أحد يعلم كمّ النزاعات التي تحدث بداخلك يوميًا، وكم يكلفك هذا الأمر لِتبدو بخير؛ فعلى الرغم من جمال الوحدة إلا أنها مُرهقة بقدر جمالها، ولكن فكرة الانعزال عن العالم مريحة جدًا أحيانًا.



«١٠:٠٠ صباحًا»

بعد استيقاظي من النوم، وأوقفت المنبه تزحزتُ من مكاني حتى كنت على طرف سريري، ثم قمتُ وبدأتُ بفتح دولابي الذي يحمل اللون الأبيض، ألا وهو ذات لون السرير، فنظرتُ هناك إلى مكتبتي الصغيرة، ثم دفعَت نعمة «أمي» دفّة الباب بهدوء، وأطلّت برأسها إلى داخل الغرفة؛ فتحوّلَت أنظارها إلى أوراق دراستي المبعثرة على سطح المكتب، فتنحْنَحَت وهي تفتح الباب وتتقدم تجاهي وتحمل طبق الإفطار، فوضعته على المكتب.. وقبل أن تخرج راحت تُحيل نظرها في الغرفة، ثم قالت في حزم:

- روّق الأوضة يا أدهم قبل ما تنزل.. انت مش ناوي تتعلم النظام

شـوية بقى.. أووف.

وبعد دقائق من إعادة ترتيب غرفتي أخذتُ ملابسي وذهبتُ لاستكمال رحلتي الجامعية التي كانت تعبّر عن أشد أنواع الملل الذى يتبعه نوعٌ من الأحلام الضائعة نسبيًا، ومع مرور الأيام قد تضاءَل فرصة تحقيقها، كلما مرت الأيام زاد يأسك، زاد إدراكك للأشياء من حولك، زاد إدراكك لنفسك، كلما كانت الأيام تمرّ تباعًا كانت تعلمني الكثير والكثير، كم كرهتُ هذه المرحلة العمرية والدراسية بسبب ما بها من ضغط وملل، وكما ذكرتُ في البداية قد نتقن فعل أشياء غير مُستحبة لنا، وذلك حبًا في أصحابها مثلًا، أو لسبب آخر في ذهنك، ولكنك لا تدرك أن الأفعال والذكريات كانت تغيّرك وأنت لا تعلم؛ فهي كانت تأخذ أشياء ولا تعطيك شيئًا؛ فهي لا تعطيك سوى هذه الضربات فوق رأسك، فوق هذه الرأس المُهلكة ليلًا كان أو نهارًا؛ فسريعًا وبعد أن التفتُّ إلى الساعة الحائطية بالغرفة فوجدتها تجاوزت الحادية عشر ظهرًا ببضع دقائق، أخذتُ فطوري بلهفة سريعة، وقمتُ بتجهيز نفسي للذهاب لحضور محاضرات الجامعة، وبينما كنتُ واقفًا أمام الباب، لابسًا ملابس تَصفُ حالي، ألا وهي أن معظمها كان يتطبع باللون الأسود؛ فذلك اللون الأنيق الذي يُقال أنه يعبر عن البؤساء، حسنًا فإن كانت المعادلة هكذا؛ فأنا أعشق فكرة كوني بائسًا، شهِقَ هاتفي برنة خفيفة، نظرتُ إليه وجدتُه صديقي طه، بدأتُ بالحديث مُنشرحًا:

- ألوو..

- ....

- ازيّك يا صديقي.. انت فين كدة؟

تنهّد قليلًا، ثم قال بنبرة استهتار:

- أنا تحت بيتك يا أستاذ.. وفيه معاد محاضرات مهمة ومستقبل بيضيعوا كده.

فكنتُ حينها أقوم بتعديل ملابسي، وانا أقف أمام باب المنزل وقد أغلقتُه خلفي؛ فكنت أتدرّج درجات السُلم مسرعًا بخطواتي وكأن خلفي كلبًا يجعل الأدرينالين في جسمي يعلو وينخفض في ثواني؛ فرددتُ عليه بصوت متلعثم من الاضطراب:

- - طب أنا نازل أهو.. سلاااااا... ااااه.

وفي تلك اللحظة كنتُ ساقطًا مستلقيًا على الارض متألمًا لبعض الوقت من شدة السقوط، ولكن لا يزال الاتصال قائمًا، كنت شديد الغضب بسبب ما كُنّا به من تسرّع، فقمتُ متسرعًا مجددًا وتقدمتُ، وبعد عدة خطوات من الانعراج أصبحتُ كما كنت، ولكن سرعان ما زال غضبي عندما كنتُ أمامه وجهًا لوجه أمام ذلك الصديق المخلص؛ فتحولت حالتي من غضب إلى ضحك هيستيري، خاصة بعدما رويتُ له ما حصل؛ فقال بابتسامة ساخرة:

- انت تمام يا قدري!

ألقيتُ نظرة على ضحكاته؛ فتمتمت في ارتباك:

- أنا كنت قاصد على فكرة :).

تعالت ضحكاتنا ونحن ذاهبان مشيًا في شارعٍ أقل ما قد يوصف أنه سوق للبائعين بجميع أنواعهم، إلى أن وصل الأتوبيس العام وتكدّسنا به، ثم بدأ كلٌّ منا بمسك كتابه وبدأ يغرق بتلك الكلمات، إلى أن وصلنا لمقَصدنا؛ فهمَمنا بالركض للالتحاق بتلك المحاضرة، فقمتُ بدق باب القاعة بلهفة بالغة، كنت قلقًا أن يفوتني شيء قد قِيل قبل مجيئي، وبعد أن أذن لي أستاذي بالدخول في عدم اكتراث، فنظرت له وقُلتُ في امتنان:

- لا مؤاخذة دكتور أشرف على التأخير.

نظر لي نظرة حادة تملؤها الاشمئزاز، والتي أدركتُ من تلك العيون أنه كان شديد الاستياء مني؛ لأنه يعلم أنني دائمًا ما أتأخر على الموعد المحدد؛ فأنا لستُ من هؤلاء الملتزمين بمواعيدهم؛ فردّ عليَّ بصوت متقطع ممزوج بغضب:

- ادخل يا أدهم.. ادخل.

فنظر أمامه ثم التفتَ مرة أخرى خلفه؛ فوجد صديقي يدق الباب أيضًا، ولكنه تلك المرة لم يتبعه أي ردة فعل سوى الصمت؛ فلا شيء يصعب تفسيره كما يصعب تفسير الصمت؛ فالصامتون هُم أكثر الناس حديثًا، ولكن مع أنفسهم، وفي قلوب الصامتين أشياء لا تُصمت.

فلا تحكم على شخص وكأنك أعلم بحياته؛ فبعض العيون تبكي دون دموع من ألم الحياة، وبعض القلوب مُحطّمة دون أن تشتكي، احترم صمت غيرك؛ فلا هدوء في الهدوء كما تظن، فكم كنتُ مثله في

تلك اللحظة، كم كنت أبدو هادئًا وبداخلي مُشتعلًا، فإذا رأيتَ أحدًا هائمًا صامتًا منشغلًا بحاله ومنشغلًا بمتاعب الحياة؛ فلا تكن سخيفًا وتسأله عن حاله؛ لأنك في أغلب الأوقات ستجده بخير رغم أنك تعلم كذبه الشديد، كأنك تشعر بشيء يصعب عليك وصفه، شيء يمتدّ من الداخل إلى الداخل، يُشعل حُزنًا ويطفئ آخر، مُشتّتٌ وكأن قلبك في مجّرة وعقلك في أخرى، كأنك تمشي مُنذ ألف عام ولا تعلم إلى أين أو متى ستتوقف؛ فبعض الهموم والأحزان لا يجب أن يعلمها أحدٌ آخر.

* * *

مثل هذه الأحلام الضائعة لا يجب أن نتحدث عنها؛ لأنك ستجد أن لا فائدة منهم.. لا يفعلون شيئًا سوى الثرثرة، فإن سألته ماذا قدمتَ في حياتك فسيلتزم الصمت، فقط دعك منهم وانظر أمامك... ستجد حلمك يراودك حتى تتلذذ وتتمتع عندما تصل إليه؛ ففي هذه اللحظة سيتمنون أن يبقوا مثلك؛ فيتحولوا من نُقاد لأحباء، دعك منهم واتبع حلمك أيًّا كانت التحديات، ومن ثم يستكمل أستاذي ما بدأه من شرح مادة «التاريخ»، أعلم ذلك الاشمئزاز الذي تزيّن على وجهك الآن، أعلم كم من شخص كرهَ هذه المادة؛ فهي مفترض أن تعبر عن التاريخ العريق والحضارات؛ فهذا المفترض وليس عن ذلك «الدش» الذي كنتُ غارقًا فيه حتى يمكن استخلاص معلومة مفيدة منها، وعلى الرغم من أنها كانت مملة كان لابد عدم التنازل هنا عن تلك الأحلام، لا يمكنك هنا غير اتّباع خطوات نجاحك؛ فعلى الرغم من أنها كانت مملة بشدة.. وعلى الرغم من كل هذه الضغوطات التي مَرَرنا بها جميعنا يومًا؛ فأنا لا أذكر شيئًا لك، أنا لا أملك من الأصدقاء الشيء البارع الذي يمكنني

من خلاله أن تطأ قدمي في مكان ما وأطلُّ عليهم يَعمُّ المكان بالترحاب، يتعالى فيه صوتي مع أصدقائي ضحكًا وفرحًا.. تزداد صوري الملتقطة بجانهم عدادًا؛ فكل ذلك لم يحدث، فهو كان حلمًا.. فكنت لا أملك في حياتي سوى ذلك الصديق؛ فالجميع لديه معارف كثيرة، ولكن لا يمكنك القول على الجميع أصدقاء؛ فربما شخص واحد يكفي، فأنا لا أملك صديقًا أو أخًا؛ فأعتبر صديقي هذا جميعهم في شخص واحد، أنا في غيابه كالوحيد الذي يعشق الظلمات.. عاشق الصمت! عاشق الوحدة كأنها زوجتي؛ فهي كانت كالزاوية المظلمة رغم وجود بصيص من النور؛ فأعتبر ذلك النور صديقي.. فأنت يا صديقي عيوني التي أرى بها العالم.

بعد الانتهاء، وفي طريقنا للخروج من المكان، سمعتُ صوت أنوثي كالنسيم قادمٍ من خلفي مناديًا باسمي وكأن لأول مرة أشعر بأن اسمي له معنى وكم هو جميل، فقالت في حنان وهي تهمس:

- أدهم.. لو سمحت؟

نظرتُ خلفي وجدتُها فتاة ليست برفع العود ولا ببدن حيوان الباندا؛ فهي كانت متناسقة وعيونها البُنية اللون، ولحُسن حظي كُنا واقفَين على أول سُلم خروج من القاعة والشمس خلفي والفتاة أمامي؛ فظهر جمال عيونها التي تحوّلَت من بُنية اللون إلى العسلي، ذاك المزيج المصري الرائع، وذلك الوجه البشوش الذي يزيّنه ذلك النَمش بجانب تلك الغمازات، وعلى الرغم من كل ذلك كان لِقِصر قامتها جمالًا من نوعٍ خاص، هل يعقل أن أكون قد سرحتُ فيها وفي

كل تفاصيلها والوقت لم يتعدّ الثلاث ثوان؟! ثلاث ثواني فقط كانت كافية! فتدفقت الدماء في عروقي، لكن سرعان ما استعدتُ تركيزي؛ فكنتُ في قمة الانتباه أمامها، فقُلت لها في هدوء متظاهرًا بالتجاهل:

- نعم.. أمرك يا أختي؟

أخذَت نفسًا عميقًا، ثم قالت بهدوء، محاولة منها السيطرة على توترها:

- احمم.. الأمر لله وحده.. القلم بتاعك وقع منك بس.. اتفضل.

- شكرًا جدًا ليكِ.

جاء صديقي وقد خرجنا سويًا، ولم يتوقّف لحظة عن كم الاسئلة المتعلقة بهذه الفتاة؛ فقمت باختصار الأمر وشرحتُ له ما حدث؛ فبدأ يتغازل بها والثناء عليها، رغم أنني لا أعلم لما يفعل ذلك وهو يعلم أني لا أستطيع الدخول في تلك البُقعة من الحب مرة أخرى، وعلى الرغم من ذلك ومنذ ذلك الموقف وتلك الفتاة لم تخرج من رأسي اللعينة؛ فلماذا لم أقم حتى بسؤالها عن اسمها حتى أكون قادرًا على معرفة من تكون تلك الفتاة؟ ولماذا أيضًا كنت غارقًا بالنظر لها وأنا أتحدث معها؟ وعلى الرغم من كل هذا الحديث وكمّ الأسئلة المتراكمة في عقلي إلا أنني كنتُ صامتًا أمامها.. صامتًا لأقصى درجة.. صامتًا وشديد الجدية، وعندما خرجتُ خارج القاعة برفقة صديقي نظرتُ إلى جانبي الأيمن؛ فوجدتُها في حالة من الضحك الهيستيري، وكان معها أصدقاؤها وكان الفرح ظاهرًا بوضوح عليهم، ومن ثم نظرتُ أمامي فاهتز هاتفي، جاءني رسالة من موقع «صراحة».. ذلك الموقع الذي يقوم بحَجبِ وإخفاء كل من

يبعث لك برسالة من خلاله؛ فلا تعلم من قد يكون الراسل؟ فتحت الرسالة وجدت بها نوعا من الغموض؛ فكانت:

«مش لايق عليك الحُزن.. خليك على طبيعتك أحسن.. وحشتني.»

صُعِقتُ من هذه الرسالة لدرجة أن أثناء خروجي وقفتُ لدقائق في منتصف الطريق أمام العربات القادمة نحوي، نعم! لا أصدق، من يكون هذا الشخص؟! لا أعلم من هو، ولماذا يقول «وحشتني»؟ أهل تكون تلك الفتاة التي رأيتها اليوم؟ ولكنها من أين أتت بالبريد الخاص بي؟ ولكنها لم تكن الفاعلة؛ لأن الكلمة تدل على وجود تعامل سابق أو قائم بيننا، وأيضًا قوله «خليك على طبيعتك..»؛ فهي تدلّ على أنه شخص يعرفني قدر المعرفة، أهل يكون صديقي طه.. باعثًا إياها لمحاولة العبث معي؟! لا لا هو ليس من ذلك النوع الشاذ! من يكون؟! من يكون هذا الشخص؟! ولماذا الآن؟ أأدركتَ الآن أن الفضول يقتل، تركت الرسالة كما كانت! والتزمتُ الصمت رغم دواخلي لم تصمت لحظة منذ هذه الرسالة، وصلتُ إلى المنزل بعد موجة من الإرهاق الشديد.. حقًا كان يومًا مُتعبًا، عندما رأتني والدتي جاءت إليَّ ببعض الطعام في غرفتي، تلك البقعة التي ألجأ إليها عندما أكون حائرًا غارقًا بهمومي.. ذلك الركن الهادئ بعيدًا عن ضوضاء الآخرين، فنظرَت بأرجاء الغرفة فوجدَتْها مُنظمة؛ فانشرح قلبها وأغلقت وراءها الباب مبتسمة، ثم بدأتُ بفتح مُذكِراتي.. لا بأس بها، سأكون يومًا ما تمنيتُ؛ فهذه الجملة كانت تستقر بعقلي، كنت أكتُبها أمامي دومًا في جميع الكتب.. أعلّقها أمام التلفاز الخاص بي.. معلّقة على فراشي.. محاولة لتحفيز ذاتي دائمًا؛ فكان في مخيلتي أنني أقف في المنتصف أرى ذاتي

وأنا أحقق أحلامي! كنت أري وأنا في تلك الجامعة التي كنت أُريدها منذ الصغر عن ذلك المدرج الذي أحلم أن أكون من أوائل صفوفه، تلك الفتاة الجامعية التي كنت سألتزم بوعدي أنني لا أريدها سوى صديقة.. صديقة تعلم الحال الحقيقي، وليس الحالة الزائفة.. الحال الذي يكون حقًا يعنيها حق العناية؛ فأنا أحلامي صغيرة جدًا، إلا أنها شبه محطمة، ولكننا نحاول!



قبل الموعد!

كنا على وشك الانتهاء من امتحانات آخر مرحلة دراسية "بالفرقة الرابعة".. بُعثت لي رسالة من خلال الـ"واتساب":

– ربنا معاك ومعانا بُكرة.. أتمني لو أشوفك صدفة.""

رددتُ داخلي، وبكلمات يملؤها الارتباك الملتصق بابتسامة قد تكون مصطنعة نوعًا ما:

– وبعدين يعني؟! طب ما أنا لازم أعرف مين ده!؛ لأنه كدة زوّدها، بس يمكن الشخص ده هو نفس الشخص اللي بعتلي على صراحة؟.. طب ومين ده؟.. طب ما يمكن مش هو نفس الشخص!.. طب عاوز مني إيه.. واشمعنى قبل الامتحان؟

لكن سرعان ما قمتُ بالاتصال بـ(طه)، وقُلت له في اهتمام:

– طه، شوف الرقم ده باسم مين كدة؟

فهتف فجأة:

– هو رقم مين طيب وحصل إيه؟

رددتُ عليه في نبرة صوت مزيج من الفرحِ والدهشة:

– بعتلي على "واتساب".. شاكك إنه حد من صُحابنا!، أو يمكن البنت صاحبة النمَش دي!.. لا لا مش ممكن.. شوف وقول لي مين ده الرقم أهو (....).

فأغلقت معه المكالمة، وبعد دقيقة تلقيتُ الرد منه بصوت متقطع:

– الرقم متسجّل.. بـ خلود!

ثم أضاف في تهكّم تشوبه مرارة:

– أوعى تكون خلود يا أدهم اللي كنا نعرفها؟

وكأن كلماته توغّلت بقلبي وأخذت تقطّع في أوتاره، إلى أن شعرتُ بأن أنفاسي بدأَت تنسحب من داخلي ببطء من وَهل الصدمة. فقُلت في تردّد وهتفت:

– خلود؟.. أكيد مش هي، دا إحنا بعِدنا من زمان وهي اتخطبت ومشيوا من المنطقة.. ومن ساعة اللي حصل بينا وما بقناش نتكلم.

الآن أنا حائر، والآن يجب عليّ التركيز والانتباه إلى أحلامي... إلى تلك الأماني التي أُريدها يومًا بعد يوم، لكنني كنت أفشل ولا زلت أفشل في الابتعاد عن ذكراها؛ فهي الحب الأول والأخير، هي من علمتني ما معنى الحياة؛ فخذلتني وكسرتني.. كسرَت آخر أضلعي الباقية؛ فمنذ فراقنا أتذكرها في اليوم ألف مرة، منذ فقدانها أتذَكَّر تلك الفتاة التي علمتني أن للصدمات معنى، فقد تأخذ صدمة تلو الأخرى حتى فقدانك للشعور، ستظل هي من استحوذَت على قلبي بأكمله، ولكنها بطريقة أو بأخرى أرادت الذهاب بعيدًا بحثًا عن رغباتها؛ فالنهاية كلها خادعة،

فعلى الرغم من أن هناك أشياء عديمة لا تنتهي، رغم انتهاء وجودهم في حياتنا، أشياء لا تنتهي مهما توالت الأيام والسنوات.

***

شعرتُ من نبرة صوته بأن قد بدا على وجهه الانزعاج:

- أدهم... أنا والله معرفش أي حاجة عن خلود من ساعتها.. من ساعة مارجعنا أنا وانت زي زمان.. أنا بتأسفلك لو لسّة فاكر إني خذلتك زمان عشان حاجة ماتستاهلش.. أنا معرفش لو هي خلود ليه رجعت وتبعتلك! وإيه فكّرها بيك؟.. بس عايزك تعرف إن أنا كنت غبي زمان لما عملت كدة؛ لما فكرت أبيعك لسبب رخيص.. أنا بعدها حسيت إني غلطان وإن أنا اللي رخيص.. عايزك تعرف إن أنا جنبك ياخويا.. وعد.. مش هكرّر الغلطة مرة تانية، سواء معاها أو مع غيرها، أنا كنت أعمى في حب نفسي، أنا بتأسف لو فاكر لي حاجة تضايق.. ويلّا نكمل المذاكرة عشان ربنا يوفقنا ونسيب الموبايل، عندنا حاجات مهمة لازم نفوق ليها.. كمل مذاكرة وأنا هصحّيك الصبح عشان ننزل سوا.

- تمام.. هستناك يا طه.. سلام.

صمتٌ قاتل لا أعرف من أين أوتيتُ به، لا أعرف لماذا أتذكر الماضي.. لماذا تُعيد الأيام الكرّة معي؟! هل تضعني أمام اختيار آخر؟ أم تريد مني الصبر؟ ولمَ الصبر والنفس قد هلكت؟! لماذا نخفي ما بداخلنا وقتَما يجب علينا الحديث؟! لماذا نلتزم الصمت وقت لا يجب به أن نصمت؟! أنا أكره نفسي الخائبة حتى أثناء الرد.

الاستسلام الذي بداخلي... فالغضب الذي يجعلك تصمت، يمزقك.. يمزقك كُلك.. أنا الآن أمام تحدٍ لا يوجد منه مفر.. لا يوجد أمامي سوى الاستمرار.. الاستمراروعدم النظرخلفي، ولكني دعني أقف أمامك لبعض الدقائق، دعني آخذ من ما يدور ببالك.. بعضًا من الأسئلة الهائلة المتشابكة ببالك.

ماذا فعل كلٌّ من (طه، خلود) بك؟.. وماذا يربطهم ببعض؟ ولماذا تتذكرك الآن؟.. وماذا تريد منك!

وإن أراد الزمن يومًا لقائكما ماذا سيدور ويختلف عندئذً؟ وهل كنت تحبها يومًا حقًا؟

اكتفيتُ بالرد بداخلي باستهجان وأنا اتمتم بصوت خفيض:

- إن أنا لسّة مقابلتش النوع اللي ممكن يضحي عشاني بحاجة.. والأغلب أنا اللي بضحّي براحتي النفسية ووقتي وأي حاجة أقدر عليها.. يعني على أمل إن الحاجات دي تتقدر أو تتلاحظ على الأقل، وفي الآخر بلاقيني ضحّيت بكل ده عشان ولا حاجة؛ فأنا مش بكره الحب زي ما واضح عليّا! أنا بكره الانتظار.. الأكاذيب.. الاستغفال.. خيبات الأمل.. عدم الاهتمام.. وكل شيء مشابه.

***

” لا تسـامح أبـدًا الشـخص الـذي جعلـك تفقـد يقينـك... الشـخص الـذي بسـببه لم تعـد متأكـدًا مـن الأشـياء، لا تغفـر لمـن أثقَـلَ الأيـامَ عـلى قلبـك، لمـن جعـل الانكسـار يصـل إلى عينيـك ويُـرى.“

وفي السادسة صباحًا بينما كنت نائمًا على فراشي ومهلكًا لدرجة كنت شبه غافل؛ فاستيقظتُ على صوتها الهادئ:

- أدهم.. يلا يا حبيبي قوم راجع شويّة.. ربنا معاك يا رب.

فالتفتُّ إليها في اهتمام:

- حاضريا ست الكل.. ربنا ما يحرمني من دعواتك دي ولا منك يوم.

لم تمضِ بعضُ الثواني ونظرت لهاتفي، وجدتُ أنّ صديقي رَنّ عليَّ ليوقظني.. بدأ هوبالحديث:

- صحيت؟

- آه.

فأردف إليَّ بصوت خافت:

- طب كويس، يلّا نقوم نراجع لأني حاسِس إنها ليلة مش هتعدي على خير.

ترددّ طه لبرهة، ثم أضاف بصوت حزين:

- أول امتحان وخايف جدًا يا أدهم.

حاولتُ تفريغ ما بداخلة، بهدوء وتؤدة قُلت:

- لا تقلق سيمُر كُلّ مُرّيا صديقي.

فقال لي مداعبًا:

- بطّل فلسفة.. ده وقت فلسفتَك دلوقتي!

قاطعتُه في احتجاج:

- يا صاحبي افتكر حلمك وحطّه قدامك وانت بتذاكر.. خليه حافز ليك.

فأخذ يتمتم بصوت متقطع:

- هحاول.. هقفِل دلوقتي ها.. سلام.

كنتُ أفضلَ من يرشد الناس على الطرق وأنا تائه بينهم..!

***

"٨:١٠ صباحًا"

- أنا نازل يا نعمتي ادعيلي يا ست الكل.. وادعيلي إني أعرف أركّز!

- ربنا معاك يا ابني.. المهم ماتنساش تاخد البرشامة اللي سيبتهالك على الكومودينو.

- لا أنا ما أخدتَهاش؛ لأن معرفش بتاعت إيه.. بس أنا هخدها دلوقتي قبل ما أنزل عشان خاطرك.. وربنا يستر عليَّ.

تركتُ المنزل وأنا مبتسم ابتسامة محاولةً مني؛ لأجعل والدتي مطمئنة فقط.. فرأيتُ على وجه أمي ابتسامة جعلت السكينة والطمأنينة مكانًا في قلبها؛ فظهر كل ذلك على وجهها البشوش، لكني كنتُ على عجلةٍ من أمري لم أكن أرغب بالتأخير أكثر، وطه في انتظاري تحت المنزل منذ ما يقارب عشرة دقائق، جاءت سيارة خاصة بأحد أصدقاء طه، فهم يُعتَبرون أصدقائي أيضًا منذ الثانوية، إلا أنني لا

أعتبرهم كذلك.. أخذنا نقرأ ونقرأ ونحفظ على أملٍ أن تكون خِتامُها مِسك كما يُقال.

وبعد نصف ساعة قد وصلنا إلى بوابة الجامعة الرئيسية، وفور وصولي إلى الساحة المُطلّة على القاعة الخاصة بالامتحانات بالجامعة حينها فقط تذكرتُ تلك الرسائل وذلك الاسم العالق بمخيلتي منذ فراقنا وموقفي من طه... تذكرت كل ذلك، وبدأت الحيرة واللهفة تغوص على وجهي مجددًا، تظهر وكأنني قاصدٌ الالتفاف حولي كثيرًا، وكل مرة في ذلك أرى أنني أبحث عن لا شيء! ثم التفتُ مرة أخرى وأنتظر ما يأتي! إن كانت خلود حقًا هنا أو كانت دُعابة، أهَل كانت تلك الفتاة التي لا يزال صوتها مُسيطرًا على أذني، وبعدما تحركتُ نحو سيارة زرقاء اللون كانت تبعد عني بعضَ السنتيمترات، قمتُ بالاستناد عليها قليلًا... نظرتُ أمامي فرأيت خلود بالفعل تقف بجانب شجرة على أحد الأرصفة، ولكنها ليست بمفردها؛ فكانت تحوم حولها أصدقاؤها، وبعدها نظرتُ في هاتفي لمعرفة الوقت الآن؟ رفعتُ رأسي عندما نادى أحد الاصدقاء باسمي؛ فنظرت له مبتسمًا؛ فهو يعتقد أنني على أتم الاستعداد للامتحان :)

نظرتُ بجانبي رأيت تلك الفتاة صاحبة النمش مرة أخرى: فهي مرّت أمامي وكأنني لم أكن، مرت أمامي وقد خطفَت أنظاري لها بشدة، ما هذا يا الله! أهذا ملاك على هيئة بشر؟! ولكن توقّفَ عقلي من التفكير، فهي تذهب إلى خلود؟ بل وتأخذها بالأحضان وبذلك الترحاب المبالغ به أحيانًا.

***

- خلووود

فنظرتُ إليها، خلود وقد تدفق في جسدها الحماسة الشديدة وقالت:

- روح قلب خلود.. عاملة إيه وحشتيني جدًا يا أم العيون العسلي.

أما عن صاحبة العيون العسلية فنظرَت إليها، وقالت في جفاف:

- بصي مين باصِص علينا.

فهزّت رأسها في تساؤل، ثم أجالَت خلود بصرها في المكان في انبهار، حتى استقرّت أعينها عليَّ، وقالت بتمتمة:

- إيه ده؟! أدهم!

***

فنظروا أمامهما، وكنت حينها أنظر إليهما وأنا كالذي وقعَت عليه صخرة حطمته.. كنت مندهشًا بشدة.. ما هذا؟! أهَل يكونا كما أظن؟! أهو اتفاق بينهما أم أنني أبالغ في فهم الأشياء كما تقول أمي؟! أعرف خلود حق المعرفة... أعرف أنها لن تتحدّث يومًا مع أحد عني أو عن ما كان بيننا يومًا، ولكن أهَل أخبرَت خطيبها على ما كان بيننا أم لا؟ ولماذا يحملِقُون بالنظر إليَّ بهذه الطريقة؟! تركتُ كل ذلك ورائي محاولة أن أتجاهل الأمر، وقُلت بداخلي لكي أتخلص من ذلك الألم:

- حاوِل أن تتجاهلهم، فإذا تعلّمتَ التجاهل فإنك قد اجتزتَ نصف مشاكل الحياة.

فأنا كنتُ أمام القاعة الخاصة بالامتحان، وجدتُ صوتًا مألوفًا بالنسبة لي وهو يقترب من أذني، ويهمس في هدوء:

- أدهم!

فأجبتُ في صوت واهن دون أن ألتفِت:

- مين؟!

نظرتُ للوراء ووجدتها، وجدتُ من سلبَت مني الحياة ورحلَت.. من كنتُ أحلفُ يومًا أنها مختلفة فخَذَلتْنِي.. لم أكن يومًا ضعيفًا، ولكنكِ كنتِ نقطة ضعفي الوحيدة، وقفتُ أمامها بجسارةٍ متأهبًا للحديث، وبعد أن تواثبَت دقات قلبي.. وتدفقت الدماء في عروقي.. كنتُ مشتعلًا داخليًا، كان بداخلي بركان خامل ينتظر من يُثِيرُه فقط للانفجار، بدأَت هي بالحديث وقالت بابتسامة خفيفة:

- أدهم.. فاكرني، صح؟

فرددتُ عليها بغضب:

- فاكرك.. عايزه إيه؟!

فتحولَت ملامح وجهها؛ فقامت بالرد بصوت خائب كالذي يحمل خيبة أمله بين يديه:

- مش عايزه.. كنت بس بطّمن عليك.. انت كويس؟!

- أنا تمام جدًا.

فوضعتُ يدي على قلبي متألمًا، وكأني أحاول وقف نزيف قلبي السائر، وكأن قلبي يرفضُ كلامي معها، ولكنني عنّفته قائلًا:

- "اكتم الألم بداخلك.. لا تشارك أحدًا حزنك، وحاول أن تظهر بشكل قوي لا يُهزم ولو لمرة."

ولكني قُلت لها بثقة قد تكون مصطنعة:

- أنا همشي... سلام.

تطلّعَت إليّ لثوانٍ، وقالت بنبرة حزينة وهي تهمس:

- أدهم!

سرَت رعدَة في ثنايا جسدي أقاوم فيها سبل الذكريات الذي أخذ يتدفق بقوة، بدأ بصري يُجيل في المكان في انبهار، فقُلت لها باستغراب:

- نعم.

فقالت بصوتها الحنون الرقيق:

- أنا بس لما شوفتك ومن زمان ماشوفتكش ولا اتكلمنا من ساعة آخر مرة، فلما شوفتك قولت أسلّم عليك، بس انت كويس.. سلام!

شُلَّت حركات جسدي؛ فتوقفتُ بلهفة وكأنها جعلتني المخطئ كما كانت تفعل بي، حتى لو كنت لم أخطئ، فقُلت لها في لوعة:

- ثواني... استني!

لم تنطق لثوانٍ، فتنهدَت، ثم قالت في عصبية وانزعاج:

- إيه؟.. نعم!

- انتِ بعتيلي حاجة!

فاحمرّ وجهها، ثم ابتسمت ببرود:

– أنا؟! لا، ولمعلوماتك أنا لسّه مخطوبة.. سلام!

ثم استدارَت وتركتني وذهبَت إلى أصدقائها ودخلوا من بوابة القاعة لخوض الامتحان، وبعد أن انتهيتُ من الامتحان ذهبت للخروج، وأنا أمام بوابة الخروج رأيتُها بجانبي قد تفصلنا عن بعضنا أمتار قليلة، ولكنها كانت برفقة أصدقائها، لكني لم أستطع أن أتوقف عن النظر إليها، ولكنها تجاهلَت نظراتي لها، كانت تنظر أمامها، لكني على علم أنها قد نظرت لي بشكل أو بآخر، ربما بطرف عيونها كما كانت تفعل تمامًا.

***

الحكاية وما فيها..

(١)

خلود

نعم أنا أستيقظ كل يوم لأحارب فقط: أحارب عمري الضائع وذاكرتي المريضة.. أحارب لأجل البقاء بكل هذا الثبات، أنا أستيقظ كل يوم لأحارب.. أحارب فقط، أحارب تلك التي كانت تتحدث بطريقة مذهلة كما لو أن كلامها يتشكل حقلًا أخضر ممتدًا من حنجرتها إلى غاية قلبي؛ فكانت ملامحها الأعجوبة الثامنة.. مزجَت بين عينين حُوريّة.. وسحر بغدادي.. وأناقة جزائرية.. وصوتها كان في عذوبة لبنانية.. مع بشرة سمراوية.. إرثها شامي.. يزين جمالها كونها مصرية: فهي تلك الفتاة التي أعطَتْني حبًا فأعطيتُها شغفًا وعشقًا، تلك التي سَحبَت منيّ الحياة بعدما كنتُ أعرف معنها.. تلك التي خذلَتْني ورحلت! فجميعًا يَمُر بالخذلان يوميًا!.. خذلانك لعدم الْتحاقك لميعاد سفرك.. خذلانك لردّة فعل صديق لك حول موقف ما.. خذلانك يومًا ما لأهلك بعدما فشلت في الوصول لسقف الطموحات التي وضعوها لك؛ فيبدؤوا أحيانًا بتقليل ثقتك في ذاتك.. إعطاؤك عنوان الفشل على الرغم من وجود فرصة أخرى دومًا؛ فدائمًا ما تعطيك الحياة الفُرص، ولكنك لا تُدرك ذلك.. لا تُدرك أماكن لقائك الأول بالأحباب إلا بعد الغياب، وعن تلك الشيكولاتة التي جعلَت يدَك تتسّخ حبًا.

فيومًا قد سألتُ أمي:

لماذا لا نُدرك قيمة الأشياء سوى بعد فقدانها؟ لماذا نستسلم للنصيب؟.. لماذا لم نحاول مرة أخرى؟

كانت إجابتها صاعقة على الرغم من مدى قوة حُجتها.

- يا بُني، الاشتياق قاتل.. قاتل لأقصى درجة.. سيقتلك يومًا لأنك كنت الطرف الذي يتنازل دائمًا.. لا يجب التنازل دائمًا، لا يجب عليك أن تتنازل سوى للشيء المرغوب به فقط، فأجِبني لماذا تتنازل يومًا عن كرامتك بمحاولة مكالمتك لشخص رغم خذلانه وكسره لك؟! يا بني، كثير من العيون قد فرحَت بالحب، ولكن أبكاها النصيب، يا بني، هُم قد فارقوك لأنك تعفو دائمًا.. عليك أن تعلم أن العشق صامت تمامًا، وأنه لا يوجد كلمات يمكنها وصفه.. ولكن! أجِبْني.. لماذا؟.. لماذا تكُون أنت الطرف الأضعف يا بني؟! الحب ما خُلق إلا ليقوينا.

فأجِبني ولكن استمع إليّ لدقيقة:

فبعد رحيل أحدهم ستشعر بمرارة الغياب.. ستشعر كونك شمعة قد انطفأت بعد أن أنارت حياة الآخرين، وهُم لم يُبالوا لها قط.. ستشعر ببؤس الثواني التي تَمُر من دون وجودهم بجانبك.. سوف تستشعر بالخسارة والندم، شعور سيلازمك دائمًا.. شعور بكونك منطفئ من الداخل.. شعور كونكَ قطب مُظلم وجحيم أبديّ سوف يُحطّم دواخلك، ستمر الساعات والأيام والحزن يُخيّم على قلبك وعقلك لا تستطيع استيعاب ما جرى، قلبُك «هشٌّ» يا بني لدرجة أنك سوف تفقد ابتسامتك ورسمها على شفتيك.. سوف تصبح قاسيًا على نفسك قبل غيرك في محاولة منك لاحتواء ما

تبقى من ذاتك الجريحة، سوف تصل لمرحلة الأنانية في أفعالك وأفكارك، وسوف ترى إنسانًا يُبعث من تحت الرماد.. حاسم ومُستقلّ وصريح إلى حد القباحة، ولا مبالي بما يرسم حولك من أفكار أو مشاعر، ستطمح إلى رضا روحك وطمأنينتها، وهي غاية سامية تكتمل بالسلام بين دواخلك، ستبتعد عن كل من لا يشابه روحك ومن يلائمها؛ فهذا هو ما تطمح إليه النفس المطمئنة، أو التي تبحث عن الطمأنينة. غايتك يا بني بسيطة جدًا ولا تعقيد فيها؛ ألا وهي السلام الذي قد رأيته في طفولتك بين أحضاني.. والذي قد سلَبَتْه منك الأيام.. فهل سوف تسترد هذا السلام؟

***

((قبل ثلاثِ سنوات))

بعد الانتهاء من يومنا الدراسي والروتين الملل، قررتُ بجانب مجموعة من أصدقائي بالثانوية أن نكسر هذا الروتين؛ ففي ذلك اليوم كنت أعرف كثيرًا من أصدقائي، كانوا قريبين؛ فهؤلاء كانوا بجانبي دومًا في حزني.. فرحي.. توتري.. فأحيانًا كان وجودهم كافيًا لحل مشاكلي التافهة التي كنت أرَى العالم ينهار من أجلها، وبعد الاتفاق مع أصدقائي قررنا كسر الروتين اليومي فأخذ «طه» اقتراح فكرة ليست سيئة نوعًا ما، وهي تجميع مبلغ من المال من خلالنا، وقررنا أن نلعب «بالكُرة» وسط الناس ووسط تلك المباني، ذهبَ صديقي لشرائها، وبعد نصف ساعة جاءنا بمحبوبتي؛ فهي كرة القدم، نعم أعتبرها محبوبتي الأولى؛ فأنا عاشقٌ لتلك اللعبة فهي المفضلة لدي، وبعد الانتهاء رأيتُ صديقي «يوسف»؛ فأنا لا أعرفه حق المعرفة، فهو صديق الدراسة فقط، ارتحتُ لهُ... رأيت أنه يليق بكونه صديقي رغم أنني لا أليق بكوني صديقَ أحد، فتحدثتُ لهُ:

– يوسف.. هات رقمك مش معايا؟

فقال مبتسمًا:

– ماشي تمام.. اكتب الرقم وابعتلي واتساب.

امسكتُ هاتفي وضغطتُ على لوحة الاتصال:

– قول... (....) ماشي يا يوسف!

– عاوز حاجة يا صديقي!

- تسلم.

قمتُ بتسجيل الرقم والذهاب للمنزل، وبعد يومين من ذاك اليوم الممتع بعثتُ لهُ برسالة عبر«واتساب»، كان مضمونها:

- «عامل إيه؟»

فبعد ثلاث ساعات منها كنت قد أخذت أحد كتب التنمية البشرية وبدأت أغوص بالقراءة بها، إلى أن جاء الرد:

- أنا الحمد لله.. مين؟

أمسكت هاتفي وكتبت:

- دايمًا يا صديقي... أنا أدهم.

فرأيت تلك العلامة التي تدل أنه بدأ يكتب، فظهرت رسالته:

- أدهم مين؟

كتبتُ له بسخرية:

- أدهم صاحبك يا بني.
- ابنك؟..(ضحك هيستيري) أنا خلود.

بدأت علامات الذهول تملأ وجهي؛ فكتبت له بجدية:

- كفاية هزار.. المهم بقولك يا يوسف.

لترد هي ببرود:

- حضرتك مجنون؟!

بدأت علامات الغضب تملأ وجهي للحظات فقط، ولكنها قد ذابت بعد ثوانٍ قليلة؛ فأنا لستُ من النوعِ الغاضب؛ فأنا عندما أبتسم لا أعرف العودة لغضبي مرة أخري؛ فكتبت لها وأنا مندهش:

- هي وصلت لحضرتك.. ثواني.. هو انتِ بنت بجد؟

فكتبت بعصبية، وظهر ذلك في حروفها:

- والله بنت.. مين انتَ؟

لأكتب لها في ارتباك:

- احمم.. هو ده مفروض رقم صاحبي ادّاهولي من يومين.. هو الظاهر إن الرقم غلط.

شعرتُ وكأنها تكتب في تقزز عندما كتبت:

- لا ده رقمي أنا.
- لا مؤاخذة.. انتِ اسمك إيه؟

كتبَت وقد بدأ وأن غضبها قد ذهبت بعض الشيء:

- خلود.

ليسيطر الصمت لثوانٍ، ثم أضافت:

- قولت لك الاسم فوق على ما أعتقد.

كنتُ أشعر معها مع كل كلمة تكتبها أنني تزداد رغبتي بالحديث معها، فقُلت لها وكأني أحفظ ما سأكتبه:

- انتِ منين يا خلود معلش؟

فكتبَت سريعًا لترد:

- شبرا مصر.

فكتبتُ لها مازحًا:

- دي موجودة في مصر دي؟

بعثت لي « إيموشن» ضحك، وأردفت كاتبة:

- آه.. انت منين؟

- فيصل.

- أحسن ناس.. انت كام سنة؟

- ١٨ سنة.. وانتِ؟

- ١٨ سنة برضو.

فكتبت لها وأنا مبتسم ابتسامة ذهول:

- صدفة دي ولا إيه؟.. ما علينا.. أنا آسف أولًا لو حصل حاجة يعني، وعندي بس سؤال بس يا أختي وهقفل.

- إيه هو؟ اسأل يا أدهم.

فقُلت لها بتردد:

- أمسح الرقم ولا أخليه ولا أعمل إيه؟

قامت بإرسال «إيموشن» غاضب في تلك المرة، ثم أخذت تكتب:

- عادي، بس ماتتصلش بعد إذنك.

ثم سيطر الصمت على أجواء المحادثة التي لا أعلم مدى ولماذا هذه الفرحة التي جاءتني؟ أهل لأن كل ما في الموضوع أنها صدفة غريبة أم لأنها فتاة؟ أم لملامحها الملائكي الظاهر على «واتساب»؟ طُبِعت صورتها إلى غاية قلبي وعاطفتي، لا لا.. لم تكن غير صدفة، لن أبالغ في هذا أيضًا؛ فهي صدفة فقط لا غير.

***

«٢٠ فبراير ٢٠١٤»

كنتُ نائمًا على السرير الخاص بي وأتحدث أنا وخلود عبر الـ «واتساب» عن بعض الأفلام الأجنبية الذي كُنا نشاهدها على التلفاز ومناقشة أحداث الفيلم سويًا، ثم دخلَت نعمة غرفتي مفزوعة، وقالت بنبرة حزينة:

– أدهم، أبوك تعبان أوي.. انزل وقّف تاكسي بسرعة وتعالى نروح بيه المستشفى.

لم أتمالك نفسي؛ فنهضتُ بسرعة وأنا أتمتم بصوت متقطع:

– حاضر.. دقيقة واحدة بس.

قمتُ مسرعًا وكانت أحد عربات الأجرة «تاكسي» تمر أمام المنزل فأوقفتها، ثم صعدتُ لمساندة أبي، وأثناء النزول كنت أحاوطه من خصره بذراعي وهو يتأوه وعيناه مليئتان بالدموع؛ فهمست له في تأثر:

– ماتخضنيش عليك بالله عليك.

ونحن في السيارة قمتُ بالاتصال بدكتور «محمود»؛ فهو الدكتور المتابع لحالة والدي.

- دكتور.. أبويا تعبان... عايزك دلوقتي تجيلنا لمستشفى القصر العيني.

ليهتفَ دكتور محمود في فزع:

- ثواني بس أغيّر هدومي.

سمعتُه يتمتم بصوت شبه مسموع خلال الهاتف:

- الحالة شكلها جَت.. ربنا يستر.

فأنا لا أعلم ما هي الحالة التي يقصدها، ليس يهم... كل ما يهم الآن هو والدي؛ فأنا بدونه لا شيء؛ فالأب حياةٌ، والأم نفسٌ.. فأمامي الآن الكثير من الذكريات تستحوذ على عقلي بأكمله وكأنه مُحتلٌّ مُستسلم لأفكاري السلبية.. ولعقلي الباطن رأيتُ شريط حياتي بجانب والدي فقط يَمُر أمامي وكأنه فيلم سينمائي، وبدأ الفيلم تنخفض سرعته إلى أن انخفضت وأصبح يَمُر ببطء؛ فرأيتُ ذلك الموقف مع والدي عندما كنت أحلم يومًا أن أكون شُرطيًا، عندما كانت عيوني تغمُرها الدموع فأخَذَ بيدي برقة وقال:

- «يا بُني، لن ينتبهوا لك وأنت تحاول، سينتبهون حيت تتوقف عن المحاولة، فقط حاول أكثر من مرة ولا تدع نفسك مستسلمة لأحلامك الضائعة، لا تكُن ضعيفًا؛ فالضعفاء يموتون قهرًا.»

تمّ وضع والدي في العناية المركزية، فقط يمنعه عني ذلك اللوح من الزجاج المتين، بينما أنتظر في الخارج جالسًا على أحد كراسي الانتظار،

وأنظر له في تمعن، ثم أخذتُ أقرأ ما تيسر من القرآن من سورة «يس» داعيًا الله بشفائه العاجل:

- {يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ}

فقد رنّ صوت والدي في أذني وأنا أتلو الآيات في شغف:

- مفيش حاجة هتنفعك يا بني غير أعمالك.

فتوقفتُ عن القراءة لدقيقة رافعًا رأسي تجاه غرفته، وكانت عيوني قد انهمرت منها الدموع انهيارًا. أنتظر في الخارج ويُمنع من دخول أي شخصٍ له سوى بإذن من الدكتور الخاص، وصل الدكتور واستعلَم عن حالته فور وصوله لقسم الطوارئ بالمستشفى؛ فعلم حالته، ولكني قمتُ بالإلحاح عليه لرؤيته فقط.. لن أتعدَّى أكثر من دقيقتين؛ فوافق الدكتور طالما لن أتعدّى الدقيقتين، وفور اقترابي منه رأيتُ أعينه تملؤها الدموع وتتساقط على خده وكأنه فيضان، لكنه طلب مني الاقتراب منه دقيقة؛ فاقتربتُ فورًا دون تردد، فتنهّد وهمس بأذني بهدوء وقال:

- أدهم.. خلي بالك من أمك.. دي اللي باقيالك بعدي.. بحبك يابن...

قاطعته قائلًا بانزعاج:

– ماتقولش كدا، ربنا يقومك بالسلامة ويخليك لينا... انت شوية وهترجع معايا البيت.

– .... صمت

رأيته ينظر خلفي ويبتسم وقد ابيَضّ وجهه في غضون ثوانٍ قليلة وكأنه نورٌ ساطعٌ في قبو مُظلم، نظرتُ خلفي... لا أحد، نظرتُ في جميع الاتجاهات الممكنة بالغرفة... لا أحد، لا أحد في الغرفة يا أبي غيري، ثم نظرتُ أمامي فورًا فوجدته قد فارق الحياة وكان في ذمة الله.

– لااااا ماتسِبْنيش دلوقتي.. أنا محتاجلك، أنا ماليش غيرك.. أرجوك قول لي إنك بتهزر معايا.. انت عامل فيا مقلب صح؟ أنا عارفك بتحب الهزار، أنا عارف إنك بتحبني وعايز تعرف غلاوتك عندي، أنا مش هقدر غير بِيك، لأ فوق وقول لي إنك بتهزر معايا.. يلّا عشان نرجع البيت، مراتك عاملالك شُربة الكوارع اللي بتموت فيها، موت! لا بعد الشر.. ماتسِبنيش أنا بتسند بيك.. أنا من غيرك ماليش لازمة، أرجوك ماتبعدش وتسيبني لوحدي.. ماتسِبنيش أرجوك.. ولكنك دلوقتي في ذمة الله، الله يرحمك ويغفر لك، أنا بحبك أوووي، مش عارف هتسِيبني لمين، عايزك تطّمن انت جوايا بكل موقف انت عملته بكل ضحكة ضحكتها لما شُوفتني مهموم، انت جوايا وهتفضل جوايا.

ثم قمتُ بالاتصال بـ (طه) أطلب منه الحضور للمنزل لإقامة واجب العزاء وتحضيره لكل الترتيبات المتعلقة به، حتى أنتهي من مراسم الدفن واستخراج التصريح الخاص بالدفن، ثم كنتُ واقفًا على غُسله وهو عروس ملاكًا متزينًا بثوبه الأبيض، والمسك يفوح منه،

وكان مبتسمًا ابتسامة رقيقة كملاك نائم، فأمسكتُ برأسه وقبلتُ جبينه وأعلى رأسه؛ فسقطَت دموعي سريعة، حاولت إخفائها، لكنها قد اندثَرت في تتابع مستقيم، فضمَمته إلى صدري بشدة وكأنى كسرت أضلعه، وأما عن وقت تكريمه كنت حاملًا إياه على أكتفتي، كم كانت جثته خفيفة خفة طائر الملهوف بإطلاق سراحه، فكان بالماضي هو من يحملني، أما الآن أقف أمام قبره أبكي لفقدانه، وبجانبي ثلاثة أشخاص من أقاربي، كان من ضمنهم «إسلام» -ابن خالتي- وبجانب رجل المقابر هَمَمْنا بالنزول إلى ذلك القبر، ذلك القبر المظلم؛ فكنا على قرابة «الواحدة ظهرًا» والظلام يَعُم أرجاء المكان، بدايته ذلك السلم نهايته ظلام كامد، لا نَفَس أو مساحة تجعلك تتحرك في المكان الذى تقف أنت فيه فوق هذه الرمال، فأخذ كلٌّ منا يفتح مصباح هاتفه الخاص حتى بالكاد يرى ما هو أمامه، حتى كدتُ أرى جثتين آخرتين بجانب والدي، رأيتُ الحشرات في جميع أركان المكان، تظهر اليرقات الدودية في كافة أنحاء الجسم لكلتا الجثتين، لم أستطِع تخيل -أبي- يومًا مكانه، لم أستطِع ولو للحظة، وعندما أخذني خيالي كون -أبي- مكان أحدهم؛ فالدموع قد سقطَت مُرهفًا، لم أصدق يومًا هذا الرعب الذي أتواجد به الآن، لم أصدق يومًا كمّ هذا الرعب، رأيتُ إحدى الجثث منتفخة بطريقة مُريبة، بطريقة تجعلك إن كنتَ كافرًا يومًا.. إن كنتَ كثير الأفعال الشنيعة في حياتك تعلن توبتك فورًا، ستُقسم أن بمجرد خروجك من ذلك المكان سوف تغيّر ذاتك، تتغير لدرجة لا تتوقعها، لا أعلم من أين أُوتيتُ كل هذا الثبات وأنا أحمله كما كان يحملني يومًا في أيام الصبا، والآن أنا أحمله بيدي لقبره، كنتُ واقفًا غير مصدقٍ أهَل يكون حلمًا؟ ما عُدت أصدق، أهَل يكون حقًا كابوسًا قد يمضي؟ كنت أتمنى لو أنه حلمٌ ولا يكون واقعيًا، لكنه الآن يتطلبُ مني الثبات، إمّا حقًا أكون ثابتًا أم أتصنع الثبات أمامهم، فربما كنت

أضعف من والدتي التي تجاوزت هذا الانهيار، فربما هي أصبحت يتيمة الآن، لدينا أقارب، لكنهم لا يصلون الرحم يومًا، عليَّ الثبات والصمود لأجلها، لكني أرى دموعها المختزنة ببحر الفضيان بأعيُنها؛ فهي أول صدمة في حياتي، لا بأس... ما وجب عليّ سوى الصبر والدعاء له وترك التراكمات تستحوذ عليَّ.. فربما تكون النهاية!

***

ذهبتُ مع والدتي في عربة أحد أقاربي، تلك السيارة المرسيديس لونها أخضر داكن، وفور أن أقلعنا بها قامت أمي بميل رأسها على كتفي وهي متزينة بالعباءة السوداء، ذلك اللون التي عشقناه حتى تلونَت به حياتنا، ونظرَت أمامها في تمعن وأخذت تتمتم بصمت أكاد لا أسمعها جيدًا:

- الله يصبرني على فقدانك يا محمد.. هنعيش من بعدك ازّاي يا أبو أدهم.

وكانت الدموع كادت أن تذرف من أعينها، عُدنا إلى المنزل وأقمنا العزاء كما يليق بوالدي، وجدتُ صديقي كما يقولون، الصديق وقت الضيق، وجدته مجهزًا لكل شيء، شكَرتُه فأخذَني في صدره بشوق ولهفة بالغة، شعرت بكسرٍ بأحد أضلعي بالحجاب الحاجز، وكأنه يقول لي لا تقلق أنا بجانبك؛ فقُلت له بحزن وأنا أغرق ببحر دموعي:

- سابني يا طه.. سابني بعد ما كنت بقْوَى بيه، بعد مكان هو سندي وضهري.. سابني أعافر لوحدي.. هو مايعرفش إنه نور عيوني.. مايعرفش إني مش هقدر من غيره.. عارف.. أنا مش عارف أفكّر حتى في اللي جاي.. مش قادر أتخيل إنه مش موجود في حياتي خلاص.

- ....

صمت لفترة، رتبَ على كتفي، وقال بلهجة جادة:

- ربنا قال في القرآن: «الَّذِينَ إِذَا اصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»

ظلّ يتحدث، فتغير نبرة صوته في مناجاة يائسة:

- كُلنا رايحين يا أدهم.. احنا كلنا حياتنا زي القطر بالظبط.. كل شخص دخل في حياتنا هيخرج منها بعد فترة سواء قريبة أو بعيدة.. فكل محطة هتقرب هتلاقي كل واحد منهم بيتغيّر لحد ماتيجي المحطة اللي هينزل فيها ويركب غيره.. محدش بيتغير أو بيختفي مرة واحدة.. وفيه ناس هتلاقيهم بيتغيّروا تدريجيًا لحد مايختفوا من حياتنا.. هتتأثر بالناس وبالتجربة بتاعتهم ممكن... دا شيء وارد فعلًا.. بس من أخطر أنواع المحطات دي لما تلاقي إنك في محطة فقدت شخص من أهلك.. ربنا يديمهم في حياتنا فعلًا.. غير كدة كله بيتعوّض مع الأيام.. كله رايح يا صاحبي.. احنا بس اللي المفروض نختار الناس اللي تستحق إننا نِعاني عشانهم.. وده والدك، بس عايزك تقتنع إن هو في مكان أحسن دلوقتي، هو عايزك تفتكره انت بس.. وهتفتكره بدعائك ليه.. إنما الدموع دي هتخليه حزين في قبره.

***

مُؤلمة تلكَ الدمعة التي تسقط وأنت صامت، تسقط من شدة القهر والألم والاحتياج.

«في نهاية الأمر.. لن تجد أحدًا تقتسم معه خسارتك.. ستتحملها وحدك.»

لن تجد أحدًا يقتسم معك خسارتك، ولن تجد أحدًا بجوارك.. فقط أنت وحدك تمامًا.. أنت وحدك بالمعنى الحرفي للكلمة.. فقد مَرّ أربعون ألف سنة من لغة الإنسان، ولا يمكنك أن تجد حرفًا واحدًا يصف الشعور الذي بداخلك تمامًا، لن تجد غير غرفتك المظلمة؛ فهي ملجأك الوحيد، فكم مرة تبتعد عنك تلك الأشياء التي كنت تريدها بشدة؟ كم مرة تكون بالمنتصف؟! كم مرة تحاول إبقاء أحاسيسك الدفينة حية بالرغم من الصعوبات التي تواجهها أثناء خوضك للطريق؟! فأنا واحد من هؤلاء البشر الذين يفضلون البقاء بلا رفقة، ولكي أكون أكثر دقة أنا شخص لا أجد في الوحدة أي ألم أو عناء، ولا أجد في قضاء ساعة أو ساعتين يوميًا في الركض وحيدًا بدون التحدث مع أحد، وقضاء أربع أو خمس ساعات أخرى في غرفتي وحيدًا، شيء صعب أو ممل.. حيث إنني لديّ هذه النزعة منذ طفولتي، فمثلًا عندما يكون لدي خيار كنت دائمًا ما أفضّل قراءة الكتب في عُزلة تامة، أو الاستغراق في الاستماع إلى الموسيقى عن تواجدي مع أي شخص آخر؛ فأنا دائمًا لدي أشياء لفعلها وحيدًا، فأنا منذ ذلك اليوم دخلتُ فيه في حالة من الكآبة ولم أعد حينها على قيد الحياة، أشعر بأنني خارج الدائرة.. أنني جثة هامدة.. تبرد.. تتألم.. جثة لا تريد شيئًا ولا تفكر في شيء، أنا بشكل أو بآخر، أنا أشعر بالانتماء لأولئك الذين لا يهمهم أن يعرفهم أحد، حتي الذهاب لآخر العالم لا يمحو الألم ما دام القلب محتفظًا بذكرياته، كنت أريد أن أخبرك أنكَ لا زلتَ هنا، كل يوم وأنت هنا، في الموسيقى، والمسافات، والأصوات، وفي الشوارع وأنا

أمشي في كل مكان، لم أنسَك، هكذا أجدكَ بين إهمالي ورُكام أيامي، وفي كل تفاصيل غربتي المنسية البعيدة، وأعرف أن قلبي يتوقُ إليكَ على الدوام؛ فربما تكون كل تلك الندوب تذكارًا مستقبلًا بتلك الرحلة المرهقة التي نمر بها.. إذًا ربما ننتصر يومًا...

***

«٣:٠٠ عصرًا»

قد وصلتني رسالة منها وقتئذٍ، تقول فيها:

- انت حاطط صورة سودة ليه يا أستاذ؟

بدأت أكتب ويدي ترتجف:

- والدي اتوفَّى من يومين يا خلود.

لترد سريعًا في ذهول:

- يومين؟! يا نهار أسود.. البقاء لله يا أدهم... أنا معرفش الموضوع.

- ونعم بالله.

- انت كويس؟

كتبت لها وقد انهمرَت الدموع من جفوني:

- تمام.

توقفتُ لدقيقة عن الكتابة لأجدها تقوم بالاتصال أكثر من مرة، ولم يكن لديّ قدرة علي الرد، فعاودت إرسال رسائلها عبر «واتساب» فكتبَت:

- مالك طيب يا أدهم؟ احكي!

فألقيتُ نظرة خاطفة على تلك الصور التي تزين حوائط غرفتي، ثم أكملتُ كتابة، وقُلت لها بصوت منكسر:

- يا خلود أنا مش بعرف أجاوب على كلمة «مالك»، مش بعرف أوصف اللخبطة والدوشة اللي جوايا غير بكلمة مفيش أو بسكت، بس في الحقيقة أنا شخص مليان انهيارات، بس بحاول أكون بمظهر ثابت.

لتنزل كلماتها عليَّ وكأنها مرطّب، فهدأَت نفسي رويدًا رويدًا، فبعثَت رسالة:

- طب أنا جَنبك.. دة انت شخص دخل حياتي غيّر أفكاري وغيّر في حياتي كتير قوي.. انت جبرت بخاطري كتير قوى.. أمي بتقول إن أعظم صفة ممكن تكون في الإنسان هي جبر خواطر الناس.. تخيّل انت عملت كدة وبزيادة معايا بمواقفك معايا من ساعة ما عرفتك.

- الحمد لله إن لسه فيه حد بلاقيه معايا غيرطه.. الحمدلله على وجودكوا.. ويا رب تفضّلوا جنبي.

***

«الدليـل عـلى أنـك قـوي بـما يكفـي هـو أن حُزنـك هـذا لا يعلمـه أحـد، ولا تريـد مُشـاركته مـع أحـد، يكفيـك مـن القـوة هـذا.»

«٣:١٥ عصرًا»

ذهبتُ لصلاة العصر، وفور انتهائي أمسكت هاتفي وأنا لا زلتُ جالسًا على السجادة، دخلتُ على محادثتها فوجدتها قد أرسلت رسالتها ومعها «إيموشن» قلب.. لتكتب:

- طب أنا عايزه أحكيلك حاجة.

- قولي.

- أنا حكيت لماما عليك.

كتبتُ لها متسائلًا في دهشة:

- حكيتي إيه؟! مفيش حاجة تتحكِي أصلًا.

لتكرر استخدامها لذاك «القلب» الملتصق بكتاباتها:

- لا فيه يتحكي.. أنا مابخبِّيش عنها حاجة... عاجبَك ولا لأ.

حاولتُ أن أداعبها بكتابتي، فكتبتُ لها وأنا مبتسم بشدة، فكتبت:

- عاجبني ياختي..

قمت بإرسالها، فأكملتُ كتابة وأنا منشرح:

- سلميلي عليها طيب.

- أختك؟.. الله يسلّمَك.

لتفتح موضوعًا جديدًا، وأنا بداخلي سعيدٌ حزينٌ! سعيد لأنني قد

بدأت أشعر بمكانتي وحُبها الذي لم تنطق به حتى الآن، وحزينٌ لأنني قد أصبحتُ منكسرًا بعد وفاة والدي.

- انت كَلت ولا لأ؟

- كَلْت الحمد لله.. ونازل دلوقتي الدرس.

- هترجع امتى؟

- على الساعة ٦ كدة.

أغلقتُ باب المنزل خلفي وكنت أكتب وأنا أقف أمام الباب؛ لأكتب آخر كلماتي لأذهب:

- ماشي.. لما أرجع عايز أحكيلك على صديق عمري.. عايز أعرّفك عليه.

- تمام.. سلام.. على فكرة انت حد جميل قوي يا أدهم.

فربّما كان عقلي بين دائرة تحيط به الأفكار من جميع الجهات، أفكار تأخذني إلى خيال، عالم افتراضي، عالم مليء بالخيالات... كثيرٌ من الأسئلة تدور ببالي الآن، شيءٌ منها.. لماذا أحاول الهروب منكِ حتى لو كان هروبًا نسبيًا؟ لماذا أشعر بغيابك حتى لو كان غيابك لمدة أقصاها خمس دقائق، أشعر وكأني لا أرغب في التوقف ثانية في الحديث معكِ؟ لا أعلم كمّ الأسئلة التي تدور في بالي الآن؛ فأنا لديّ الكثير من الأحلام التي لا أتحدث عنها لأحد، لا أعلم هَل أكون قادرًا أم لا، حسنًا... فلا عليّ سوى الاستسلام للأيام؛ فبمرورِها قد تختلف الأمور، فربما نعيش أحلامنا يومًا ما، فربما نبكي فرحًا حتى فقداننا للشعور، فمن أنواع الابتلاء أنك تكون شخصًا مزاجيًا، شخصٌ يفكر كثيرًا، شخص يتعلق

بالأشياء بسرعة، شخص يهتم بالتفاصيل، شخص مش بسهولة أبدًا إنه ينسى، شخص دائمًا ما يعاتب نفسه بدل الناس.

***

«٦ أغسطس»

وبعد الإعلان عن نتيجة الثانوية بعد شهر من الانتهاء من الامتحانات، وبظهورها أدركتُ قائمة الكليات المتاحة لي، ولكن يا ليتنا نختار النصيب، فكانت الظروف تحكم دائمًا، وكنت أتمنى يومًا ما أن أكون ضمن الأوائل، أن أجعل والديَّ يفخران بي، أن أجعل والدتي تفخر بي لدرجة لا توصف، عندما تراك والدتك ضمن أوائل الصفوف، تراك عند استلامك جائزة تقديرية من الدولة، فربما تعلم أن تلك الصعاب جعلَت منك شخصًا لا يهزم.. شخص يصعب كسرُه، فربما كانت أحلامنا أحلام يقظة، فرددت بهمسٍ داخلي:

- « لقد سقطَت أحلامُنا في بئريوسف، فلِمَا لم تأتِي قافلة العزيز بعد؟!»

تلقيتُ مكالمة منها بعد دقائق من ظهور النتيجة، فبدأَت الحديث بصوت منزعج:

- أدهم، عملت إيه في النتيجة؟

وبعد تنهيدة طويلة، قُلت بلهجة قد مالت إلى البكاء:

- ٨٦٪.. للأسف.

لتضحك ضحكة طويلة... لتردّ أخيرًا في ثقة:

- أنا جايبة ٧٠٪ وأمي بتوزع بيبسي على الجيران :)

رددتُ عليها مبتسمًا كشخص حائر واقفٌ بالمنتصف بين الشيء وعدمه:

- أهاهاهاها.. هَمّ يضحّك وهَمّ يبكّي والله... انتِ وراكِ حاجة بكرة؟

- لا.. ليه؟

- طب استأذني من والدتك.. تعالي نخرج، حابب أتكلم معاكِ في حاجات كتير.

كنتُ حينها أنتظر الرد وقلبي يخفق بشدة خوفًا من شعوري بالإحراج، فقُلت لها فورًا:

- المدة انتهت خلاص.

لم تمر الثانيتان وقد وصلني الرد منها بكل ثقة لتهتف فجأة:

- هستناك في ميدان رمسيس عند محطة المترو.. الساعة «١ الضهر»

فرحتُ فرحًا شديدًا، كدتُ أتأرجح من فوق الفراش، رددتُ بـ:

- حلو قوي، عايز أقول لك حاجة يا بسبوسة.

أحسستُ بقلقها حيال الأمر الغير مُعترف به حتى الآن بيننا، فكُنا نعيش حياة من التردد الدائم؛ لتتحدث بلهجة انزعاج:

- قول.

- هقول لك بكرة لما أشوفك أحسن.

أعلم أني لا زلتُ متردداً حيالكِ رغم أن لكِ من أفضالك ما يجعلك فوق الجميع.

***

«وجـودكِ مُطمئـن حتـى لـو كان بينـي وبينـكِ مـدن ونـاس وصَمـت، بمجـرد مـا يُقـال اسـمك أشـعُر وكأن الصلـح مـا زال قائـمًا بينـي وبـين الحيـاة.»

« دائمًا أحبك.. حتى في أشد أمزاجِي خرابًا.»

فأخيرًا جاء الوقت، جاء اللقاء، جاءتني تلك الفتاة التي غيّرَت موازين حياتي رأسًا على عقب، فربما أتغيّر يومًا بعد يوم، فربما تواجدَت أحاسيسنا منذ الوهلة الأولى، فربما يكون حبًا بمعنى الحياة، فربما ليسَت كل البدايات تنتهي شغفها بالفقد، وقد تبدأ النهاية منذ البداية، لا أعلم ماذا يخبئ القدر، وليست البداية وفقط، فربما تكون قد وصلنا لمعنى الإدراك؛ فلا شيء آخر يصعب فهمه كما يصعب فهم ذاتك، فربما عزيزي تكون روحًا بلا بدن، روحٌ مُقيمة في شخص آخر، متعلقة به بشدة، متعلّقة بأقل تفاصيل يومه، فربما نكون نتاجًا لتجاربنا، نتاجٌ مبني من تجارب الحياة الفاشلة، فربّما تكون حياتنا سوداوية لدرجة لا توصف، فربما تأخذ الصدمات واحدة تلو الأخرى، وربما نحلم وتضيع وتسقط أحلامنا، التفاصيل! أتفق أنها جزء لا يتجزأ من الذاكرة.. التفاصيل.. استوقفتني تلك الكلمة لبعض من الوقت، لحديث داخلي، وبعد تنهيدة تحمل مزيجًا من الفرح والدهشة قُلتُ:

- « التفاصيل.. هي اللي بتزيد الحب وبتخلي مهما عدّى عليه سنين يفضل بنفس قوته.. اللي بيحبّك هو أكتر حد بيركز في التفاصيل اللي بتفرحك.. بتقفلك.. بتريحك.. بتعصبك.. بحزنك.. هيحسّ بكل ده من قبل ما تقول كلمة واحدة.. ممكن نكون كُلّنا عاديين في نظر بعض.. لكن مميزين جدًا في نظر اللي بيحبونا.. ومفيش حد شايفك عادي هيهتم بأصغر تفصيلة تخصك.»

هَل اعتقدتَ للحظة بأن يمكن أن تكون تفاصيل يومك البائس هي حياة لغيرك؟ هَل يمكن لشغف البدايات والقلوب لامتلاكهم هذا القدر من العشق؟ لا أعلم، لكني أعترف لدواخلي أنها أصبحت شيئًا

لا يتجزأ من يومي، فربما تكون حياة العاشق المبتلَى بحب تلك الفتاة، فحبها الخاطف، فمن تكون تلك السارقة... تلك اللصة... تلك الفتاة التي لا أعلم عنها سوى اسمها؟ لا أعلم إلى أي مدى تأخذني بعيدًا، فربما أخذَت قلبي، ويكون قلبي متعلقًا بها بشدة، ولكن هَل سوف نصل للنهاية؟ لا أعلم، فمن تكونين أنتِ أيتها اللِصة؟ فمن أنتِ حتى أغفلَ قلبي عن الجميع ولَم يغفل عنكِ يومًا؟ أَوَجبَ عليّ إنقاص قدر الأشخاص في قلبي حتى يكتمل القلب بكِ؟ ولمَ لا؟! فأنتِ قد أُحتلَّ قلبي على يدكِ، فَإذا كان الأمر بيننا قد ينتهي بنا يومًا فهذا وارد.

قبل أول لِقاء..

السعادة... قد تحصل عليها يومًا من الأيام، فربما بعضٌ منها في يومك، فربما يصل الأمر إلى شهور وسنوات، سنوات تقضيها بجانب من تحب، شهور تنقضي تباعًا ولا نشعر بانقضائها، يوميًا يشعر الإنسان بجميع شعورة الإنسانية، حزن، سعادة، ضيق، ملل، صدمة، ارتباك، إلخ.. ولكن أوَصَلْت يومًا للسعادة اللامتناهية، كون يومك متعلق بشخص واحد، شخص واحد فقط قادرٌ على قلب الموازين لصالحك، قادرٌ على إشعارك بالسعادة الغامرة، فغالبًا ما يكون شعور الإنسان صادقًا نابعًا من القلب؛ فلذلك يمكنك تزوير أي شيء، لكن لا يمكنك تزوير المشاعر، فربما يومًا تأتي عليك فترة، تَعِد ولا توفي، تقسم ولا تستقم، تُقرر الاقتراب أو الابتعاد رغمًا عن قلبك؛ فتجد أنك ثابت ليس لديك قدرة على الفراق أو القُرب لسبب أو لآخر، الوعود تذوب مع مرور الوقت؛ لأنها في الأصل كاذبة، أنا أرى أنه لا يوجد دافع لعدم وفائك بعهدك، فمن يرِد يستطيع، لا عليك... فقط انتبه للبدايات؛ فربما تنخدع بها.

***

قبل لقائها بدقائق...

أخيرًا سأراها، سأرى هذه الفتاة التي غيّرَت مفهوم الحياة لديّ، تلك التي عَوّضَتني عن فقداني لوالدي، حتى لو كان نسبيًا، عن تلك الابتسامة النابعة من القلب عند الحديث معها، تلك الرسائل التي كنت أقرأها وسط مجموعة من الناس وكأني لم أدرك وجود أشخاص بجانبي، عن صوت ضحكاتي الشاهقة العلوّ عندما أغرق بين سطور كلماتها وكأني صنعتُ عالمًا خاصًا بها نعيش به سويًا فقط.

كلما سمعتُ صوتها كان قلبي يزاد خفقاته، كان يرقص فرحًا... كنتُ سعيدًا بوجودها في حياتي، الآن قد مَرّعلى معرفتي بها ٥ أشهر، ٥ أشهر كانت كافية لأتعرف عليها جيدًا، ربما كانت كافية لأشعر وأتأكد من شعورها تجاهي، وعن ذلك الموقف حين أرادت بالتلويح بحُبها لي، كانت تقول في مرة لا أنساها أبدًا.

عندما قالت في حيرة وقلق:

– ما انت بتحب البسبوسة، وبتموت فيها، بس مقولتلهاش إنك بتحبها، ممكن تكون الحلويات مستنيّه تتأكد عشان تفضل بطعمها الحلو، قبل ما التفكير يغيّر طعمها.

كنت أدعوها بـ «بسبوسة» عندما أقوم بمضايقتها؛ فتتعصب وتغضب، كنت أرى في غضبها لذة أخرى من الحب؛ فأنا أنتمي لهؤلاء الذين يحبون استثارة أحدهم غضبًا حُبًا فيه. كنتُ حين أريد الصُلح بيننا أدعوها بـ«بسبوسة»، كانت تعشق الحلوى مثلي تمامًا، فكان وعدي عند أول لقاء لنا سنأكلها سويًا، فليست المسألة في الحب أنه يجعل الإنسان سعيدًا، هذا تبسيط مُضلّل، الحقيقة أن الحب ينهي كل أسئلة الإنسان تجاه نفسه، القلق بشأن المظهر، انعدام الثقة

بالنفس، النظرة الدونية للذات، العلاقة المرتبكة مع الجسد، كل حُفَر الروح المؤلمة هذه يردمها الحب كأن لم تكن.

***

«١٢:٠٠ ظهرًا»

دقّ باب غُرفتي بِرقّة خفيفة وكأنها لا تريد إزعاجي:

– أدهم! انت صاحي بدري ليه النهاردة؟

– نازل يا نعمتي مع صُحابي.. هتأخر شوية ممكن.

ظهرت تعبيرات على وجهها، بدأت بالتعجب ثم ظهرت ابتسامة خافتة، وتحدثَت وكأنها تعلم شيئًا، تلك النظرة وكأنها من الأمن الوطني، حتى استقرّت تعبيراتها وهي تتمتم بثقة:

– صُحاااابك.. وهتتأخر قولت لي.. طب سلّم لي على صُحابك.

ثم غمزَت لي مع ابتسامة، فالتفتَتْ ثم خرجت من الغرفة مبتسمة وهي تنظر إلى الأرض، مرّت دقائق وكنت على مشارف الخروج، كنت أنتظر منها فقط مكالمة تفيد بخروجها من منزلها، وبعد عدة دقائق جاءتني أمي بطبق مليء بالحلوى، ومعظمها تكون... بسبوسة؟! نظرَت لها بتمعن، وهتفت لها باستغراب:

– ده إيه ده؟!

أجابتني سريعًا وقد اتسعت ابتسامتها:

– دي عشان صُحابك.

وابتسمَت مرة أخرى؛ فقمتُ بميل رأسها ثم قبلتُ جبينَها وشكرتُها، خرجتُ قاصدًا المترو طريقًا لي، وكلما أتذكر أول محادثة لنا عندما أوقعها القدر بطريقي، كلما أتذكر ابتسامة نعمة تلك، تزداد ابتسامتي اتساعًا وأنا أسير في الشارع بطريقة تجعل كل من ينظر لي تظهر على وجوههم علامات تكون خليطًا بين الفضول والحيرة.

كنتُ أتفرّس في وجوههم أرى أنهم يقولون عني مختلٌّ عقليٌ.. قمتُ بالاتصال بها، وقُلت بصوت يملأه الحماس:

- انتِ فين يا خلود؟

لتردد هي بصوت رقيق:

- أنا داخلة أركب المترو أهو.. نتقابل في محطة مترو الشهداء، المخرج اللي بيخرّج لميدان رمسيس قدام مسجد الفتح هتلاقيه.

- اتفقنا، هستناكي هناك.. خُدي بالك من نفسك.

ثم مررتُ بالحارة قاصدًا المترو.. رأيت «عم عبده» بائع يمتلك سوبر ماركت خاص به، دخلت المكان فألقيتُ عليه السلام وفتحت ثلاجة «الشيكولاتة»، أخذتُ نوعين من الشيكولاتة.. ثم دفعت له؛ فأخذ يسألني عن أحوالي وما يختص بالجامعة التي لم تتثنّ لي الفرصة لأزورها سوى لمرات قليلة؛ فسألني عن الكلية، قُلت له في تودّد وهدوء:

- دخلت حقوق جامعة القاهرة يا حاج.. مش حابها بس ليها مستقبل.. ادعي لي بقا الواحد يحبها عشان يعرف ينجح فيها.

فقاطع كلامي ودعا لي كثيرًا لدرجة أني استوقفته لكثرة الأدعية، شكرته وطلبت منه الاستئذان، ثم خرجتُ ونظرتُ لهاتفي، وجدت

الساعة قد تخطَّت الثانية عشر بنصف ساعة؛ فأسرعتُ من خُطاي، وصلتُ إلى المترو... انتظرتُ عدة دقائق لحجز تذكرتي، فجاء دوري... دفعتُ له وأخذتُ التذكرة مسرعًا إلى مكان القطار؛ فأخذت الخط الثاني للمترفهو يَمر على منطقتِي فيصل مرورًا بأكثر من محطة أهمها الشهداء، فقد وصل القطار... ركبتُ على متنه وصعدت، قد كان المكان يَعُمُّ بالأشخاص، لا مكان للتحرك سنتيمترًا، حتى لا مكان لآخذ خطوة للخلف أو للأمام، ومع اقتراب المحطة القادمة تقدمتُ إلى جانب باب الخروج، وبعد قتال وإرهاق وصلتُ للباب؛ فخرجتُ.. وعندما تذكرتها ابتسمت فرحًا، سلكت الطريق ذهابًا للسّلّم الكهربائي، ثم صعدتُ وخرجتُ خارج أرجاء المكان وصولًا إلى لافتة مكتوب عليها «خروج إلى مسجد الفتح»، سلكتُ هذا الطريق وانتظرتُ خارج المحطة في ميدان رمسيس على وجه الخصوص. أمسكت هاتفي وبحثتُ عنها في سجل الأرقام، ثم قمتُ بالاتصال بها.. لم ترد في المرة الأولى، قمتُ بمعاودة الاتصال مرة أخرى؛ فقُلت لها بعصبية:

- انتِ فين؟ أنا في رمسيس.

فردَّت في همسٍ ملتصق بابتسامة تكاد تحاول أن تخفيها:

- بُصّ وراك كدة.

التففْتُ خلفي فزعًا رأيتها قادمة نحوي، قادمة والخجل يملأ وجهها، تنظر إلى الأرض مبتسمة، وعندما رفعَت رأسها وتلاقت أعيننا ببعض قامت بوضع يديها على فمها، فربما كانت تحاول أن تخفي ابتسامتها وفرحتها، اقتربَت حتى كانت واقفة أمامي تفصلنا بعض السنتيمترات؛ فقمتُ بمد يدي لها لإلقاء التحية، فقدمت يديها ثم سحبتها وبدأت بالتراجع وتشابك أيديها مع بعضها ممسكة يديها بأصابع يديها الأخرى

متردّدة.. وإذ فجأةً تمد يدها وأمسكت يدي بشدة، وأنا أنظرُ إليها همستُ بصوت منخفض:

- عاملة إيه.. أخيرًا شوفتك.

فازداد ترددها، ولكنها ظلت ثابته في طريقة الحديث لتردّ:

- الحمد لله.. ماتشوفش وحش.

فرددتُ عليها بتلقائية تامة وكأن قلبي من يتحدث وليس عقلي، فربما لم أفكر بتلك الجملة؛ فقُلت لها مبتسمًا وأنا لا زلتُ أتأمل عيونها الزرقاء:

- لا ما أنا شوفت الوحش قبلك.. من ساعة ما عرفتك ماشوفتش حاجة وحشة أبدًا، تقريبًا انتِ جيتي شقلبتي المفهوم تمامًا.

صمتَتْ لفترة ممزوجة بابتسامة خجل، ثم قالت:

- طب هنفضل واقفين هنا كتير.

قُلت لها وأنا الذي لم تكفّ عيوني عن النظر لها، عن النظر لتلك الفتاة ذات الرداء البنفسجي المُجَمّل باللون الأسود، كانت ترتدي حجابًا يزين وجهها ويداري شعرها الذي خرجَت منه خُصلة لأري سواده ونعومته. ألهذا خَلقَ الله الحجاب؛ لتختبئ تحته الملائكة مثلها؟ قمتُ بإعطائها الشيكولاتة أولًا، وأخذنا نتبادل قطعة من كلٍّ منها. فشكرتني وسألتني لماذا كل هذا؟ فقُلت لها والابتسامة تملأ وجهي:

- لأنِّك تستحقّي كدة.

فنظرَت إلى الأرض بابتسامة خجل، رأيتُ في عينيها لمعة وكأن عينيها نور يضيء، فأردفتُ إليها في اهتمام:

- تعالي نتمشّى في وسط البلد.. عندي حاجات كتير عايز أحكيها.

تنهدَّت لثوانٍ وقد ظهر عليها الانشراح، وكأنه قد تغلّبَت على تردّدها أخيرًا، فأومأت برأسها موافقة وهي تقول بصوت متقطع:

- ماشي.. احكي وهتلاقيني.. بسمع.. كل كلمة هتقولها.

***

« ثم أعطُوا الحب لمن يهتم لتفاصيلكم ويقدسها. »

كُنّا هائمين بالسير في خطوات بطيئة، كان على يسارنا مسجد الفتح يُزيّن الميدان، وكأنه شاهدٌ على أول لِقائنا، أخذنا نستمر بالركض، وفي طريقنا رأيتُ بائع كتب وروايات يقيم على رصيف يجاور المسجد، رأيتُ الكثير منها، كان أحدهم لدكتور: إبراهيم الفقي، أحمد خالد توفيق، نجيب محفوظ.. والكثير من الأدباء، انتظرنا واستوقفَت حركاتنا أمام سِحر الكُتب. أما هي فكانت تنظر بلهفه لتلك الكُتب، كُلٌّ منا أخذ أحد الكتب وبدأ يغوص بملخصها المكتوب على غلاف الرواية؛ فهي أمسكت بأحد كتب أداب الرعب التابعة للعراب «د. أحمد خالد توفيق».. أخذَت هي تقرأ في تمعن وأنا أمسك أحد الكُتب ممثلًا بأني أقرأها، أما الحقيقة فكنتُ غارقًا بالنظر إليها وكأني أحاول حفظ وجهها بكل ما به من لون عيونها وشفتيها، أنظر لها وكأنني أحاول أن أشبعَ من وجودها، ربما كانت أحد الحُجج لعلها لا تلاحظ أني لا أميل للكتب كثيرًا، فقط ألجأُ إليها في أوقات حُزني فقط. أما في هذا الوقت كنتُ سعيدًا للغاية، ربما كنتُ أقرأ أحد الكتب في عيونها. رأيتُ لهفتها وشغفها عندما بدا على وجهها علامات الإعجاب والفضول لاستكمال ما بيدها، فأخذَت تسأل البائع عن ثمنها بصوت طفولي:

– لو سمحت بكام الرواية دي؟

فقام بالرد عليها في جدية:

– ٣٠ جنيه يا آنسة.

أمسكت بمحفظتها، ألقيتُ نظرة على لهفتها وطلبت منها أن تتوقف، لتنظر إليَّ في تساؤل، مددتُ إليها يدي حتى تكف عن البحث عن النقود، في تلك اللحظة كنتُ دافعًا ثمنها رغم أنها لم تطلب ذلك،

ولكنه حبًا وعشقًا وغرامًا بها إن أمكنني القول. أخذَت الرواية وذهبنا نسلك طريقنا قاصدين شارع عماد الدين بوسط البلد، وبعد عدة خطوات كُنا في شارع عماد الدين؛ فبدأَت تتحدث عن الروايات والكتب قائلة في حرج:

– انتَ كنت باصصلي كدة ليه لما كنت بقرأ الرواية؟

نظرتُ إلى يَميني محاولًا التهرب من عيونها، وبعد صمت قصير قُلت بصوت رقيق هادئ:

– أصل شوفت في عنيكِ شغف وحب ولهفه كبيرة للكتب، وخصوصًا لما كنتِ بتقرئي.. ماشوفتهاش قبل كدة أبدًا...

قاطعتني برد منطقي نوعًا ما وهي مبتسمة، وهتفت في ارتياح:

– أنا حُبي للكتب كبير قوي.. باختصار عارف انت لقيت في الكتب اللي مالقتهوش موجود في أهلي أو صحابي أو أي شخص عرفتُه في يوم، حاجة كدة عمرك ما هتعرف توصفها.. حاجة كدة زي الصمغ.. حاجة لزقت في قلبي، وكل يوم حبي للكتب بيزيد عن اليوم اللي قبله، تعرف.. أنا أحيانًا بلاقي الكتاب بيوصفني.. بيوصف كل حاجة جوايا.. وكل اللي عايزة أقوله.. وأحيانًا بلاقي الحل.. بلاقي في الكُتب متعة.. أنا بيعجبني كتاب من هنا.. وممكن أسهر باليومين عشان أقرأه وأخلصه.. أنا صُحابي بيحسدوني إني عندي مكتبة للروايات والكتب.. مع إنهم أوقات بيوبّخوني عشان حُبي الزايد للكتب ده.. بيبقى ردي عليهم دايمًا إن دي حاجة كدة ملكَك انت وبس.. إن جوا كل كتاب قصة وفكرته مختلفة عن التاني.. أنا نِفسِي ألاقي حد مجنون بالكتب شبهي كدة يا أدهم.

ثم نظرتُ إلى الارض وكأني أحادثها، وقُلت بداخلي:

- يا بخت الكتب إن حد زيك يهتم بيه كدة.. وكأنه ابنها.. حد يغرق في تفاصيل حياته.. زي ما بتغرقي في كل سطر مكتوب.. طب ما أنا أحاول أفاجئها في مرة.. أتعلم وأحاول أكتب شِعر.. وقصص قصيرة.. ومين عارف يمكن أحاول أكتب ليها رواية في النهاية.. أتمنى إن يمكن تعجبها، ومنها أحاول أقرب منها.. وبالطريقة دي نتكلم أكتر.. وأقدر منها برضو أفيد نفسي وأنميها شوية.. أهو أعمل شيء مفيد.

وبعد وصولنا أمام مسرح نجيب الريحاني بوسط البلد، طلبت منها أخذ صورة لنا تكون بمناسبة أول لِقاء يجمعنا معًا؛ فقُلت في حماس:

- تعالي نتصور صورة بالرواية، وتكون ذكرى.

أخذَت هي تتردّد؛ فأومأت خلود برأسها موافقة.

أخرجتُ هاتفي وهي تقف بجانبي، قمت بالتقاط أول ذكرى لنا، بعد أن أخذنا الصورة الأولى... بعدها قمتُ بحذف الصورة وقمنا بالتقاط الأخرى.. في الحقيقة قمتُ بالتقاط أكثر من صورة.

ذهبنا فأخذتُ المبادرة بالحديث؛ فاقتربتُ من أذُنِها مبتسمًا وقُلت لها بتمتمة:

- فاكرة أول مرة كلمتك لما كُنت فاكرك واحد صاحبي؟

فابتسمت وترسّمت على وجهها الخجل والارتباك؛ فردّت ببرود:

- لا مش فاكرة.. بس فاكرة لما كنت هعملّك «بلوك» يا خفيف.. فاكر انت ساعة وفاة والدك لما كنت عايش حالة من الكآبة لوحدك،

كان هاين عليّا أقتلك.. كان نِفسِي أقول لك طب خلّيني أكتئب معاك طيب.

حينها راودني إحساس الفقد مرة أخرى حتى وأنا معها، فمنذ وفاة والدي أشعر وكأن هناك شيء أشبه بالألم يحاول القضاء على قلبي، ولكني رددتُ عليها بصوت منكسر:

- الله يرحمه ياخلود، أنا فعلًا من ساعتها حاسِس إني مكسور.

ثم رأيتها تأخذ الرواية، وضاربة إياها على كتفي الأيسر.. فزعتُ من ردة الفعل، قُلت لها في صوت منخفض:

- خلود!

فقامت بالرد فورًا وكأنها كانت تنتظر بداية الحديث لتقول في قلق:

- قول اللمعة اللي باينة في عينك.. على فكرة أنا نِفسِي أسمعك جدًا وأتأكد!

قُلت لها بعد ثواني من التردد والمعاناة داخليًا، ولكن أخذت القرار بالاعتراف لها:

- أنا أعرفك بقالي ٥ شهور.. ٥ شهور عدّوا عليّا وكأنهم ٥ أيام، أنا كنت الأول بستنّى يومي يخلص من غير أي حزن.. كل يوم برجع لسريري وأسمع الأغاني والموسيقى.. أنا عكسِك، أنا كانت هي الموسيقي اللي بتوصف حالي.. هي اللي كأنها بتتكلم عني، عارفه... أنا كان يومي مفتقد شخص زيك.. شخص يدخل حياتي مش بس يغيّرها ١٨٠ درجة.. لا ويخليني أدعي ربنا إن يومي مايخلصش.. أدعى إني مش أنام وأفضل أكلمك، أنا بقيت مدمن إنترنت بسببك، عارفه..

أنا ماكنتش بحس بالوقت وأنا معاكي وكأنه بيسرقني وأنا معاكي، عارفه... انتِ أختي، وصاحبتي، وصَاحبي، وأمي، و..... (صمت)

فردّت عليّ بصوت فضولي:

- إيه يا أدهم.. كمل.

ابتسمتُ وقُلت لها:

- وشخص بحبه في يومي.. وغالي جدًا.. شخص بستغنى بيه عن أي شخص أو أي حاجة.

كُنّا عندئذ قد توقفنا عن الركض عند أرصفة شارع ٢٦ يوليو بوسط البلد؛ فقُلت لها:

- تعالي نقعد في مكان ناكل بسبوسة.

فتَعَالَت ضحكاتها فرحًا لدرجة أن نظر إلينا أحد البائعين وتَبَسَّمَ، خاصة بعد ذهولها عندما قالت:

- بسبوسة.. إيه ده.. ده بجد فعلًا.

رددتُ عليها رافعًا رأسي إلى الأعلى وكأني أفتخر بعظمة شيء ما، وقُلت بثقة:

- طبعًا.. الأكل على فكرة من إيد نعمتي.

ردّت إليّ بنظرة استغراب ممزوج بشكٍ:

- نعمتك مين دي إن شاء الله.

فرنّ هاتفي في تلك اللحظة، فبدأَت باقتراب رأسها ونظرت بفضول

إلى هاتفي، ربما محاولة معرفه من المتصل.. تجاهلت أفعالها بفعل مقصود:

- ألويا نعمتي.

كنت أتحدث، بينما هي ازدردَت ريقها بصعوبة، فعقدَت ذراعيها أمام صدرها، ونظرت إليَّ من الأسفل إلى الأعلى بنظرة يملأها الشك والغيرة، وبدأَت بشرتها البيضاء بالاحمرار، وكانت تنظر وتنتظر شيئًا، ربما تكون على يقين من شكها، فقالت بصَوْت خافت:

- مين؟

ولكني تجاهلتُ كلماتها وأكملتُ المكالمة عن قصد، وفي نهاية المكالمة التي أنهيتها عن قصد لأجعلها تعلم مدى خطأها، فقُلت بعد ضحكة قصيرة بعدما ألقيتُ نظرة على وجهها الشاحب الغاضب:

- خلاص يا أمي.. حاضر هجيبلك الطلبات وأنا جاي، ماتقلقيش مش هنسى.

فقالت لي أمي بنبره صوت مليئة بالثقة:

- صاحبتك أكلت من البسبوسة.. أقصد صاحبك يعني؟

أنا لم أستطِع التحدث بتلك الحظة، ما إن قد بدأتُ أشكّ أنها تراقبني حقًا فأنهيت المكالمة، وبعدها كنت ضاحكًا ساخرًا، لا أعلم السبب! ربما يكون سببًا منها تلك الغيرة الواضحة على فتاتي، وربما يكون الآخر تلميحات والدتي عن تلك الخروجة.. فبدأنا نغوص في أكل البسبوسة في مقهى بأحد شوارع وسط البلد؛ فجلسنا، وبعدما انتهينا من الأكل بدأت أحكي لها عن صديقي طه، فقُلت لها في حماس وإصرار:

- بصي... هو جاري من واحنا صغيرين من يجي عندنا «١٠ سنين»، يمكن من وأنا صغير بدأت أكوّن صداقات وعلاقات كتيرة، لدرجة إن لو أنا مش موجود في يوم ممكن كُلنا مانتزلش، احنا كانت أقصى طموحاتنا واحنا صغيرين إن احنا نطلع لاعيبة كورة قدم، احنا فعلًا لعبنا في أندية، بس النصيب بقى، وبعد فترة كل واحد من صحابي ابتدا يبعد، اللي سافر بره مصر ومانعرفش عنه حاجة لحد الآن، واللي رجع يعيش في البلد بتاعته، واللي لسه موجود وبقى عَالَة على أهله والمجتمع ومتقمّص دور البلطجي، واللي لسه أعرفه زي زمان، بس احنا اللي مابقناش زي زمان، الأول أنا وصحابي كُنا عِزوه، كُنا بس ممكن نقعد على السلم ونتكلم ونهزر ونضحك عندنا أحسن من مليون خروجة، احنا كنا بنعمل غدّيوَه مع بعضنا، ممكن كل واحد يدفع حد أقصى خمسين قرش.. آه والله، وكنا بندخل البيت مبسوطين لدرجة كبيرة لدرجة ممكن ماتخليناش ننام أصلًا، ده لو مادخلناش كمّلنا رغي في الشباك، عارفه انتِ أيام رمضان اللّمة الحلوة دي، لمة صحابك على السحور وبعد مانخلّص نتجمع لغاية صلاة الفجر ونقعد نهزر ونلعب، إذا ماكناش بنضرب صواريخ في الوقت ده ونصحي الناس، أنا ماطلعتش من حياتي دي كلها غير بصُحابي، حتى كان فيه منهم بنات وكلهم جيراني واخوات وقرايب صحابي.. بس زي ماقولتلك كل واحد فينا الدنيا فرّقته، وبعدته الأيام. مافضِلْش منهم غير (طه)، وأنا لو في يوم هقف بين اختيار نفسي ولا صاحبي فصدّقيني هختار صاحبي؛ لأني بعتبره حتّة مني، ولا يمكن أتخلى عنه أبدًا.. بالمناسبة من فترة كنت حابب أعرّفك عليه، كنت حابب تكونوا تعرفوا بعض، أنا ماليش غيركوا حرفيًا؛ فنفسي تكوني دايمًا جنبي.

كانت خلود تسمع وكأنها قد سَرَحت بالكلام، قد بدأ الأمر وكأنه قد أعجبها الحديث. كانت تُنصت وكأنها تنتظر المزيد، ولكني كعادتي لا أحسن التوقيت؛ ففي تلك اللحظة قد سألتها بلهفة:

- انتِ حبيتي قبل كدة؟

ابتسمت خجلًا وتجاهلت سؤالي لها بطلبها الذهاب إلى الحمَّام لتعديل «الـ ميك اب» الخاص بها، أومأتُ برأسي موافقًا، فجاءني الجرسون بعدها، طلبتُ قهوة فرنساوي، جاءتني بعد عشر دقائق مرتبكة، قائلة بصوت متقطع:

- أنا لازم أمشي دلوقتي.. أمي عايزاني.

طلبت منها توصيلها للمترو، ربما كانت أسرع وسيلة توصيل في ذلك الوقت، أردتُ توصيلها لأقرب مكان لا أعلم السبب، لكني أهاب أن يصيبها مكروه، ركبنا عربة القطار، كنتُ واقفًا وهي تجلس أمامي؛ فقمت بإرسال رسالة لها علي الهاتف محاولة لبدء الحديث معها مجددًا؛ فكتبتُ:

- «خلود.. أنا حاسس بشيء تجاهك.. أنا مُعجب بيكِ.»

فأرسلتها فورًا على رسائل هاتفها الخاص، وفور وصولها قامت بفتحها.. ظلّت منصدمة؛ فقد قرأتها أكثر من مرة وفي كل مرة كانت تضحك بشدة، وفي المرة الأخيرة جعلتني أراها وطلبَتْ مني إرسال رسالة لشخص، أخذتُ منها الهاتف باستياء شديد وكأني رددتُ في دواخلي ربما أخطأتُ التصرف وباعترافي لها، فطلبَت مني إرسال رسالة لأحد صديقاتها.

قمت بمسك الهاتف منتظرًا أن أعرف ماذا أكتب! فقالت مبتسمة:

- اكتبلها.. «أنا بحبِك يا حياتي.. عيد ميلادك قرب.»

وبعد كتابتي لها أعطتها الهاتف مستاءً بشدة لردة فعلها، فقلتُ بداخلي بعصبية:

- يعني فاكرة صاحبتها حتى وهي معايا.. ومادِّتش أي اهتمام لرسالتي.

وبعدها ساد الصمت بيننا منذ هذه اللحظة حتى وصولنا؛ فودعتها وطلبتُ منها فور وصولها للمنزل الاتصال بي، فنزلَت وخرجَت وأمسكت بهاتفها، وبدأَت بالتوجه للصعود على السلم الكهربائي؛ فأرسلت إليَّ رسالة:

- «أنا بحبَك يا حياتي.. عيد ميلادك قرب يا أدهم.. وبلاش التكشيرة دي مش لايقة عليك.»

صعقتُ من شدة الفرحة.. أهَل كانت من أجلي؟ وكنت أنا من أكتبها بيدي.. طلبَت مني ذلك فقط لإخباري بحبها بهذه الطريقة، لا أعلم لكني الآن أسعد إنسان على وجه الارض.. سعيدٌ لدرجة قمتُ بالاتصال فرحًا بها، ولكنها قد أنكرت أنها من أرسلَت الرسالة!.. فقالَت في مرحٍ:

- أنا مش بعتّ حاجة، انت اللي كتبت... (تضحك)

قُلت لها بلهفة:

- أنا بحب......

فصمتُّ للحظات، ثم قامت بتوبيخي قائلة:

- قول بتحب إيه.

فقُلت لها بِرقّة:

- أنا بحب البسبوسة جدًا.. ربنا بعتهالي عوّضِتْني عن كتير.. أنا عايز أقول لها إنها غالية قوووي عندي.. خلود أنا بحبك جدًا والله.. ربنا مايحرمنيش منك أبدًا وتفضلي سندي.

***

أما أنتِ كـرُكام الـسُّكر في آخِر الفنجان..

« يا ليتهم يعلمون أن القلب ينبض لهم فقط، وأننا من دونهم... موتى.»

بدأت بحبها.. بعشقها.. أفتخر بأنها في حياتي.. أحببتها حتى أني جعلتها شيئًا أستمدُ منه الفرَح.. وأجدّدُ به طاقتي من اسوداد الحياة، أحببتها بغرابة.. إلى صاحبة النمش وتلك العيون الزرقاء، فربما كان لسماء عيونها الزرقاء جمالًا آخر.. صاحبة تلك الروح الجميلة.. صاحبة السعادة.. منبع قوتي وضعفي في آن واحد؛ فهي كانت استثنائية في الحقيقة.. أرَق من أن تكون نسمة.. وأقوى من أن تكون شجرة.. أحنّ من أن تكون يد أم، وليست زهرة؛ لأنها أنعم من ذلك، ليسَت ملاكًا فتلك مبالغة أحيانًا.. أنبل من أن تكون إنسانًا، وما اعتقدتُ لحظة بأنها سماء؛ لأنها شاسعة جدًا في الحقيقة، كانت أكبر من أن تكون سماء.. كانت شيئًا بعيدًا عن عالمنا.. وكأنها أتَت من الجنة؛ فهي تلك التي كأنها نَرجسية.. فالنرجس وردٌ بالنهاية، ربما أتى اليوم لتميل للريحِ الحنونة.. الريحُ المحب فقط.. فأنا أشكر الظروف لمعرفتي لكِ، أشكر تلك الصدفة التي جمعَتْني بكِ يومًا.. أشكر القدر أنه أوقعني بكِ.. أوقعني بالذي هو أحبّ إلى قلبي مني؛ فأوجه لها رسالة في الخفاء.. ربما كانت رسالة قامعة من صدري، أما أنتِ فأنا أحبك وسأظل أحبك حتى تكوني حلالي شرعًا، سأقاوم حتى أفعل المستحيل، سأظل أعافر بهذه الحياة للوصل لمُبتغاي، أما أنتِ فأنا أحبك منذ الكلمة الأولى.. المكالمة الأولي.. منذ أول حديث لكِ وأنا أشعر بشيء لا ينتهي، بل يزيد يومًا عن يوم.. ربما كنت أخفيه بداخلي، لكني أعشقك، سأدعو الله أن يديمكِ لي، كما أنني أقسم لكِ ألّا أبتعدُ عنكِ يومًا.. ربما لأني لستُ

من ضمن هؤلاء الذين يذهبون تاركين وراءهم من يحُبهم بحثًا عن الأخرى؛ فأنا أعدكِ.. وسأفِي بوعدي لكِ، سأطلب منكِ طلبًا أخيرًا.. لا أطلبُ منكِ غير شيئين: الأول منه أطلب.. استمرارك بجانبي.. أطلب ألا تذهبي كما يذهب كل ما نحبه، أما الآخر.. أطلب الصبر وتظلّين برفقتي.. حتى أكتمل من تخطيط وبدء في تنفيذ مشاريعي.. وتكويني لشخصي، حتى أكون شخصًا يصلح لخطبتك يومًا.. يصلح لأن يكون زوجًا لزوجة مثلكِ.

(٢)
طه

أنا فاكر اليوم اللي رجِعت انت فيه بعد ما سافرت للسعودية مع أهلك، كان عندنا ساعتها «٨ سنين»، انت سافرت مع أهلك واستقرّيت هناك، ومرّت شهور وسنين وأنا ما أعرفش عنك حاجة، ولا أهلك كانوا بيبعتوا يسألوا حتى! انت لما رجِعْت عرِفت إنك هتستقر هنا.. عرِفت كل ده من أمي، كان بعد ما وصلت بيوم واحد مصر.. أنا ما أعرفش عنك حاجة غير إنك هتستقرّ هنا، وفي الغالب هتقدّم في نفس المدرسة اللي أنا فيها.. فاكر أول يوم دراسة في تالتة اعدادي، فاكر ساعتها إني كنت أعرف أسامي اللي موجودين كلهم، حتى أسامي الناس اللي كانت غايبة، اكتشفت إن دخل المدير وانت معاه، ودخل قال لنا بصوت ضخم كدة:

- طه.. تلميذ جديد معاكم يا ولاد.

كان المدير ساعتها مبتسم ومبين سنانه بس تقريبًا.. وانت كنت مكشّر وماسك صوابعك وعمال «تطقْطَق» فيهم، ساعتها أنا قولت في سري:

- معقول ده طه اللي كان صاحبي واحنا صغيرين.. أنا كنت فاكر ملامحه لسه.. الشخص ده مافيهوش شبه منه خالص.. بس يمكن واحد غيرُه جديد واسمه طه برضو.. اللي سماه مسمّاش

غيره يعني؟

فاكر ساعتها لما سألك مدرس العلوم عن واحدة من المعادلات المُقرّرة علينا في المادة.. انت وقِفت بكل فخر كدة وساند إيدك على الديسك، وقولت بكل ثقة:

- معرفش، دي بتتكلّم عن إيه؟

كنت فاكر إن أنا قعدت أضحك كتير جدًا، لدرجة لفَتّ بيها نظر المدرس؛ فسألني فقُمت وقولتله:

- لو سمحت يا أستاذ.. هي المعادلة دي في المنهج :)

فاكر ساعتها لما بصّلنا احنا الاتنين وقال وهو بيشاور لنا:

- انتوا خدتوا صفر وهتسقطوا.

وبعد ما الحصة خلصت، انت جيت وسألتني بقلق:

- معلش سؤال.. هو انت أدهم؟

ردِّيت عليك باستغراب:

- آه.. بص... انت شكلك مش غريب عليّا.. بس انت تعرفني؟

فقام بمدّ يديه تجاهي مبتسمًا ابتسامة بشوشة، ربما لإلقاء التحية:

- أنا طه.. جارك اللي كُنا بنلعب مع بعض زمان، أنا سافرت ورجعت من أسبوع وقدّمت أوراقي في المدرسة هنا، وهستقرهنا.

رددتُ إليه وعلامات التعجب تستحوذ على وجهي:

- انت طه! ياااه على الزمن.. فاكر لما كُنا بنخلّص حفظ قرآن في المسجد ونلعب كورة تحت البيت، وحشتِني جدًا ووحشتني الأيام دي.. انت عامل إيه.. ووالدتك إيه أخبارها؟

بدأ الأمر وكأنه انكسر شيء ما في قلبه، فردّ ناظرًا للأسفل وقال بحزن:

- أمي اتوفِّت من سنتين.

رددتُ عليه مواسيًا:

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. البقاء لله.

- ونعم بالله.

ثم توالت الأيام.. يومًا وراء يوم، حتى أدركتُ في يوم أنني ربما لا أملك من الأصدقاء الشيء المبالغ به، حتى إلى أن جاءت المرحلة الثانوية والجامعية وبقيَ برفقتي وبجانبي؛ فالجميع يملك أصدقاء.. أحباب.. حتى هؤلاء الذين فقدوا أهلهم أحيانًا ترزقهم الأيام بأصدقاء لا غنى عنهم يومًا.. أصدقاء على هيئة حياة، قد لا نتصور كيف يَمر يومًا من دونهم.. أما عن الذين رزقتهم الحياة برفاق.. اطمئن أنت الآن لا تُكسر، لا أعلم إن كانت الحياة رزقتك بأحدهم أم لا؟ لكنني أعترف أنني أمتلك ذلك الشخص منذ طفولتي.

ذلك الصديق الذي كان أهله بجواري وبجوار عائلتي دائمًا وأبدًا.. «طه» صديقي المُحب.. قلبي النابض.. أتذكرك دائمًا.

حتى لو كان افتعال المشاكل بيننا أحيانًا؛ فسببها أن يقوم المخطئ بعتاب الآخر خوفًا من فقدانه، أتذكر أول مرة صادفتك بها منذ أن

رحَلتَ في صِغرك، أما الآن فبعودتك هذه لدينا أحلام يجب أن نعشقها، لكني سأعترف لك بشيء أني قد بدأت بنسيان ملامحك.. نسيانك على وجه الأحق، لكني لستُ من ينسى ماضية.. من ينسى طفولته.. كانت كل علاقتي بِكَ هذه الذكريات فقط أخذَت شيئًا من عقلي.. أما الآن فنحن في الجامعة، وأنت أيضًا برفقتي.. تشارَكْنا كل شيء، لا أذكر يومًا إن كنتَ غريبًا عني.. حتى وأنا قد أحببتُ تلك الفتاة.. لم أستطِع للحظة ألا أخفي عنك شيئًا.. جعلتك تشاركني كل شيء بيومي، حتي هذه التي أحببتها، كنت قد أخبرتها بمدى أهميتِك لي كونك أخ وليس صديقًا، أما الآن فعليَّ أن أعرّفَك على فتاتي.. لعل يحدث ما كنت أتمنى، ما كان يمر بأفكاري... أن أجعلكم أصدقاء.. أجعلكم بجانبي دائمًا فليعرفْ كلٌّ منكما الآخر.

***

« ١١ يونيو ٢٠١٥»

صباح يوم جديد.. مليء بالحب والمودة.. وكعادة كل صباح كنت أول ما أفعله فور استيقاظي من النوم.. كان أول ما أفعله هو إرسال رسالة إليها حتى يطمئن قلبي كعادة كل صباح منذ يوم معرفتي بها؛ لأكتب لها بجانب قلب «إيموشن»:

- صباح الخير يا بسبوستي.

دائمًا ما أرسلها لها فور استيقاظي، حتى لو كلفني الأمر أن أستيقظ من نومي خصيصًا لأرسلها لها، حتى لو كنت أترك الهاتف وأستكمل نومي، أحببتها بشدة حتى أني كنت أخاف إهمالها يومًا.. استيقظَت خلود في ذلك اليوم في «الحادية عشر صباحًا»؛ فأرسلت لي برسالة:

- صباح النور يا حياتي.. وحشتني.

قامت بالاتصال بي حتى توقظَني من نومي العميق، قائلة بنبرة صوت تسيطر عليها اللوم والعتاب:

- اصحى.. انت لسه نايم يا أدهم.. اصحى اقعد معايا.

قُلت لها وأنا مغمضٌ عينيّ وبصوت منخفض قد لا يسمعه أحد:

- حاضر يا حببتي.. أنا صاحي أهو.

لتقول بلهجة ممزوجة بين الجدية والعصبية:

- قوم يا أدهم اغسل وشك.. وكلمني عايزة أحكيلك علي حاجة تافهة وبتلكّك عشان أكلمك بصراحة بقى.

- حاضر هقوم أغسل وشي يا بسبوسة.. سلام.

قالت بصوت استغراب:

- سلام؟ دلوقتي يا أدهم قوم اغسل وشك وأنا معاك.

لتستطرد كلماتها وتقول في هدوء:

- يلّا قوم بقى.. أنا مش وحشتك ولا إيه؟!

رددتُ عليها بكل حب:

- وحشتيني يا قصيرة.. هقوم أهو.. دماغك ناشفة وعارف إنك مش هتسكتي.

وبعد أن قمتُ وخرجت من غرفتي.. وكعادتي أبحث عن والدتي حتى أقبّل يديها ورأسها، قد زاد هذا الأمر خاصة بعد وفاة والدي، وبعدما

ناديتُ عليها في أرجاء المنزل ولا زالت خلود على الهاتف؛ فناديت عليها بصوت عالٍ:

- نعمتي... انتِ فين؟

ليخرج صوتها من المطبخ بصوت شرس:

- أخيرًا صحيت.

في تلك اللحظة وأنا اتحدث مع «نعمة»، كنت أسمع ضحكات خلود بصوت عالٍ حتى أني نظرت للهاتف وهو في يدي؛ فقمت بلفت أنظار والدتي، فقالت في حزم:

- اغسل وشك وتعالى نفطر سوا، وسيبك من الموبايل شوية.

تركتُ هاتفي على أحد كراسي المنزل، وبعد أن قمت بغسل وجهي. رجعتُ وأمسكتُ بهاتفي مكملًا حديثي مع حبيبتي، فمرّت والدتي من أمامي ذاهبة لغرفتي، وبعدها بثوانٍ ذهبَت للمطبخ ثانية، ثم ذهبت لغرفتي مرة أخرى، وفي كل مرة كانت تنظر لي وهي مبتسمة ونظرتها تملأها اليقين كما ذكرتُ أني قد بدأَت شكوكي تزداد بأنها من الأمن الوطني.

ولأني كنت أدرك معنى نظراتها ولا أستطيع ألا أخبرها بالأمر لم أخبرها شيئًا عن علاقاتنا حتى الآن، لم يكن لديّ وقت كافي لأكون بشجاعة كافية حتى أعترف بما يحصل، رغم أنني الآن شاب جامعي بالغ من العمر «١٩ عامًا»، في الفرقة الثانية - حقوق - جامعة القاهرة، ذو بشرة قمحاوية، لديّ لحية سوداء اللون، ربما أهذّبها دائمًا، متوسط القامة، ذو عيون بُنية اللون. شاب جامعي ربما لا أملك مسئوليات بحياتي سوى أن أجتهد بجامعتي وحياتي، وأن أجعل والدتي في سعادة

غامرة دائمًا، على الرغم من أن بعد وفاة والدي بدأتُ بالتخطيط بمشروع ما، لكني استطعتُ في تلك اللحظة أن أسقط بخوفي سابع أرض، حطمتُه عندما كنتُ أتحدث مع خلود في هذا اليوم، قُلت لها في مرح:

- أمي رايحة جاية قُدّامي وبتبصّلي بصّات مُريبة.. أنا حاسس إني عايش مع جاسوس.

لكنها ردّت عليّ بابتسامة خليعة، وكأن بوليس الآداب سيلقي القبض عليها، ثم توقفَت وقالت مبتسمة:

- طب أقفل ولا إيه؟

لكني رددتُ عليها بتلقائية مختلطة بصوت مغرور:

- هي قاعدة دلوقتي في المطبخ بتعمل الأكل.. أنا هخليكي تكلميها.

ودون أن أنتظر منها ردًا ذهبت لها وأبلغتها الأمر، وقُلت في قلق:

- نعمتي!

نظرَت لي دون أن تقوم بأي رد سوى أنها صمتت، رافعة أحد حواجبها إلى الأعلى، ثم استكملَت ما تفعله؛ فقُلت لها بثقة:

- أمي، امسكي الموبايل.. حد عايز يسلم عليكِ.

أخذَت الهاتف باستياء وبدأت بالحديث:

- ألو..

صمتَت خلود دقائق؛ فأكملت نعمة تسألها في انزعاج:

- مين؟

فردّت خلود وقالت في هدوء:

- حضرتك عاملة إيه ياطنط.. أنا خلود صديقة أدهم في الجامعة.

ولكن في تلك الحظة تحوّلَت ملامح «نعمة» بالكامل، ابتسمت فنظرت إليَّ، ولكنها أكملت الحديث:

- الحمد لله يا بنتي.. أخبار الجامعة إيه؟

هتفَت خلود في خيبة:

- أنا بروح أحضر كل يومين تقريبًا بسبب ظروف عندي.. وحضرتك أدهم مابيحضرش غير كل شهر مرة.. أو ممكن مايحضرش أصلًا.

نظرَت لي أمي نظرة استياء وغضب، وقالت لها:

- مابيرضاش ينزل يا بنتي.. بينام.. ويخلّي طه صاحبه يكتب له المحاضرات ويبعتهاله.. بقالوا سنة على الحال ده في الجامعة...

ثم استكمَلَت بإلقاء الأسئلة دون تردد:

- انتِ منين؟! .... جبتي تقدير إيه في الجامعة.. ودخلتي كلية إيه.. جبتي كام في ثانوية عامة.... عرفتي أدهم ازاي..

لم تجد أية ردة فعل من قِبل خلود، وكأن خلود تتشبّع كلماتها في صمت، وبعد دقيقة من الصمت الواهن.. تقول لها خلود بكل جدية:

- أنا اسمى خلود ياطنط.. ساكنة في شبرا مصر.. معنديش غير أخ واحد اسمه «أنس» متجوز وعايش في الإمارات، وهو شغال في الإمارات في توكيل السيارات.. وأنا جِبت ٧٠٪ في ثانوية عامة..

ودخَلْت حقوق عشان بحبها.. ده غير إن المجموع ومكتب التنسيق هو اللي جاب الكلية قُدّامي.. وبالنسبة لأدهم عرفته صدفة من على النت قبل الجامعة، كانت عن طريق الغلط.. ولما خلصنا ثانوية والتنسيق دخَلنا حقوق.. كنت داخلة الكلية وأنا وأدهم نعرف بعض.. عدّينا السنة الأولى واحنا صحاب، وجبنا تقديرات مش وحشة، أنا جبت ساعتها تقدير جيد جدًا وأدهم جابت جيد بس هو اتظلم ساعتها فعلًا، هو دايمًا بيحكي لي عن حضرتك وقَدّ إيه بيحبّك ومستعد يعمل المستحيل عشانك.. من كلامه عليكِ خلاني أحب أتعرّف عليكِ.. بس هو عملها من غير ما أعرف ولقيتني بكلّم حضرتك من غير سابق معرفة.

قد بدأ الأمر عليهما وأنهما قد راق كلٌّ منهما للآخر، وظهر الأمر من كلامهما أنهما لا يريدان إنهاء المكالمة، لكني قمتُ بأخذ الهاتف من نعمة، طلبتها باستكمال تحضير الطعام لأنني في أشد لحظات الجوع.. وبالفعل أعطتني نعمتي الهاتف، وقبل أن تعطيني إياه قالت لخلود بلهجة أمومة حانية:

- أدهم عايز الموبايل.. أنا زي والدتك يا بنتي.. ابقي كلميني في أي وقت.. خُدي أدهم معاكي أهو.

ثم أكملَت تحضيرها الأكل؛ فأخذتُ منها الهاتف وهي تستعد حتى تنهال عليَّ، فقُلت في اعتذار:

- اهدي أول حاجة.. تاني حاجة لو كنت قولت لك ماكنتيش هترضي.. وهي فعلًا جات كدة.. مكنتِش محضّر للموضوع.. هي جات في دماغي فعملتها.

فردّت بصوت وكأنها تشد على أسنانها غضبًا:

- كنت تقول لي يا أدهم... بس طنط لذيذة.. ربنا يخليهالك.

- ويخليكِ ليا يا رب يا بسبوستي.. أنا ماليش غيركم في حياتي... أنا كنت عايز أكتب قصة وأعرف رأيك.. بس مش عارف الرواية أو القصة بتتكتب بشروط إيه.

اتسعت عيناها وهي تجيب في لهفة:

- أنا مش أعرف يا أدومي.. بس الأحسن يعني إنك تشوف وتحط الفكرة اللي هتتكلم عنها في دماغك.. وابدأ اتكلم واكتب عنها هتلاقي الكلام جاب كلام.. هتلاقي نفسك بتكتب القصة كلها.. وبعد لمّا تخلص اقرأها وقيّم نفسك أو أقرأها أنا وأقول لك.. بس قول لي إيه فكرة القصة اللي هتكتب عنها؟

فقُلت لها باستغراب:

- أنا كاتب الفكرة فعلًا.. بس أكيد مش هقولهالك.. هجرب أنا أكتب القصة دي وأوريهالك وأعرف رأيك... هكتبها بعد يومين، المهم.. طه صاحبي عاوزني أنزل معاه بكرة شارع المُعز.. ماتيجي تنزلي معايا وأعرّفك عليه، ومنها تكون خروجة.

فردَّت فرحًا وبصوت متقطع:

- أخيرًا هنخرج.. أنا فرحت.. موافقة.. موافقة، ماشي بكرة ننزل.

تغيّرت تعبيرات وجهي قليلًا، ثم قُلت لها في عتاب:

- إيه ده أخيرًا هنخرج سوا.. هو للدرجة دي أنا كسول؟

لتتمتم في صوت واهن:

- ماتقولش على نفسك كدة يا أدهم.. مش تتعصّب بقى.. انت رخم قوي على فكرة.. على فكرة يا أدهم!

فقُلت لها بتقزز:

- نعم؟!

فتمتمَت بصوت خافت:

- بحبك.

***

وكان قلبي ملكًا لي حتى قابلتكِ، فنحن لا نبحث في القلوب عن مساحة فارغة، بل عن مساحة صادقة لا أكثر.

في ذلك اليوم وبعد انتهاء حديثي مع فتاتي، ذهبت لنعمة أخبرها بأني ذاهب غدًا مع طه صديقي إلى شارع المُعز، باحثين عن بعض المتطلبات والاحتياجات بشأن صديقي، تنهدَت وفي عينيها نظرات شاردة وتهتف:

- خلود هتكون معاكم؟

- آه.. بس مش هتتأخر.. هتنزل تسأل عن حاجات ليها برضو.

- ماشي يا أدهم.. خُد بالك من نفسك.

- حاضر يا حبيبتي.

قمتُ بتقبيل جبهتها وأيديها وذهبت إلى غرفتي مرة أخري، وأخذت قرارًا بكتابتي لتلك القصة في ذلك اليوم، حتى أرويها لها غدًا عندما نلتقي، فبدأتُ بإمساك قلمي، لا أعلم من أين أبدأ، لكني قبل كل شيء قمتُ بوضع اسمًا للقصة وهي «أبقيكِ سري»... ومن ثم بدأتُ بكتابة الإهداء الخاص بتلك القصة القصيرة، فكتبتُ:

إهداء إلى...

إلى تلك التي تُضيء الأماكن الداكنة في حياة أحدهم..

وإلى تلك التي حين علِمَ أحدهم أنها تهوى القراءة، صار كاتبًا.

***

ومن بعدها قمتُ بكتابة مقدمة لكتابي، ربما في تلك الصفحة قمتُ بتقليد أحد مقدمات الكتب التي لدي؛ لأنني علي الرغم من كل ذلك لا أجيد الكتابة، سواء كانت كتابة القصص القصيرة، أو الروايات، أو حتى القراءة، لكنني أحب القراءة والكُتب والروايات وقت حزني فقط.. أما الآن أنا أحب القراءة كثيرًا، لقد علَّمَتْني ما أهمية تلك الكُتب. كان لدى تلك الأوراق قدرة رهيبة على إزاحة حُزني وتدميره؛ فأنا أشعر بالانتماء لهؤلاء عشاق الكتب، ومدمنين رائحة الكتب، مدمنِين ملمس الكلمات حين تغترق قلوبنا وخيالنا، مدمنين الملاحظات والاقتباسات، فبعضُ الأشخاص قد وصل حبهم في القراءة لحب أبطال الروايات والكتب.

ثم قمت بكتابة مقدمة قصتي الأولي متشهدًا بكلمات أحد الشخصيات العظيمة في الكتابة أستاذ «محمود درويش»:

«خفيفةٌ روحي.. وجسمي مثقلٌ بالذكرياتِ.. وبالمكانْ.. وببقايا عينيكِ.»

ثم قمتُ بكتابة أول صفحات الكتاب شارحًا فكرتي، ولكني قمت بتهيئةِ الجو من حولي ليساعدني ذلك على كتابة أكبر كَمّ منها في وقت قصير، وحتى لا تتشتّت أفكاري؛ فبدأت أكتب وأنا في عُزلة تامة عن كل شيء يُزعجني، حتى أنني أغلقتُ هاتفي! ربما لم يكن لديّ الدافع يومًا حتى أقوم بالكتابة لأجل أي شخص، أما الآن فشخص واحد قد أوقعني بهذه البقعة، ولم يكُن لديّ حيلة للهروب، فزاد حبي للكتب بسببها، ربما أكتب الآن فقط من باب التقرب منها، لكني أعترف بأن منذ الحرف الأول الذي كتبته وأنا أشعر بشيء خفي لا أستطيع وصف

مدى جماله وروعته، لكني أستطيع وصف حالي عندما كنتُ أكتب لأجلها... لأجل تلك الفتاة التي جعلَت مني شخصًا يعشق الكتابة منذ الوهلة الأولى.

ثم قمتُ بوضع فكرة القصة والشخصيات وقمتُ بكتابتهم في أحد الأوراق الخارجية، وأمسكتُ بقلمي وبدأتُ بالكتابة على أملٍ أن يعجبها ما قد بدأتُه للتو.

***

أبقيكِ سري

لكل منا شخصٌ يَحنّ له في الخفاء، لكل منّا حبٌّ سابق.. حبٌّ ليسَت المسألة مسألةُ مُحِبٍّ ومُحبِّه فقط، الأمر قد تخطى ذلك بكثير.. وصل بهم العشق يومًا إلى حد الجنون، لا يعلم منهما عن الآخر شيئًا، سوى أنه قد أصبح ذكرى، ربما بمعرفتك لشخص تحبه ترى الحياة قادمة نحوك مبتسمة.. فاتحة لكَ ذراعيها لاحتضانك، ومع اقترابك منها.. تصفعُك على وجهك صفعةً لن تنساها أبدًا.. صفعةٌ ستترك أثرًا حتى يوم مماتك، ومع إدراكك لتلك الصفعة ستُدرِكُ أنك تعيش في وهم كبير اسمه الحب، ربما لأنك لسْتَ من قام بالاختيار؛ فالاختيار هنا من قلبك، فعلى الرغم أننا نؤمنُ أن اختيار العقل أكثر صوابًا غالبًا، إلا أنه يصعُب التخلّي عن أشياء اختارتها قلوبنا، في تلك اللحظة لا يصبح لعقلك فائدة، في تلك اللحظة تكون أعمى ومسحورًا بجمال ولهفة البدايات.. الذي بسببها قد عُدنا نشعر بالحياة بعدما سلبَتْ الحياةُ منا الحياةَ، لكنك سوف تدرك الحقيقة مع الوقت.. ستدرك أن لا فائدة من تمزّق قلبك واستهلاكه؛ لأنك بشكل أو بآخر سيأتي دورك في الحب.. الحب الذي لا ينتهي بوداع.. لا ينتهي بانكسار وخيبة وحزن قاتل، ربما قد يجعلك هذا تشعر بفقدانك حياتك أحيانًا؛ فالحب ليس بعددِ مرات حُبك، وإنما بمدى قوة ثباته؛ فالثبات للصادقين، أحيانًا قد نُحب ما ليس لنا؛ فالحب لا يموت ميتة طبيعية أبدًا، إنه يموت من العمى، من الأخطاء، من الخيانات، يموت من المرض وعمق

الجروح، يموت من التعب، فهل من الطبيعي أن يفقد الإنسانُ فجأةً رغبته بالاستمرارية؟ يبهتُ هكذا.. بلا أدنى سبب؟ في النهاية كانوا في يوم قد انقضى وأصبح من الماضي الآن.

***

أنا طالب بكلية آداب عين شمس، كنت حينها في مقتبل عُمر الشباب... شاب جامعي في سنته الدراسية الرابعة، ومع اقتراب موعد تخرجي فضّلتُ فكرة كتابة مذكراتي ويومياتي بالجامعة والاحتفاظ بها، أتذكّرُ أول يوم بالفصل الدراسي الأول قد مرّ عليَّ وكأنه لا يريد أن يَمُرّ.

«٧:١٥ صباحًا»

- «اصحى يا عُمر هتتأخر على الجامعة كدة.. وده أول يوم.. إيه كل النوم ده؟ مانمتش بقالك سنين؟»

هذه كانت كلمات أمي عندما أرادَت إيقاظي من النوم لحضور محاضراتي بالجامعة؛ فقُلت لها بابتسامة محاولًا إزاحة غضبي:

- هي ليلة باينَه من أولها.. صوتِك سمّع الشارع كله.

ولكنها في الحقيقة كلمات كالغزل محاولةً مني لرسم ابتسامة علي وجهها لا أكثر، ثم سريعًا استعدتُ نشاطي وقمتُ بفتح ستار غرفتي، وذهبتُ لإحضار القهوة كالعادة، رأيتُ أبي يقرأ كعادته على الفطور جالسًا ممسكًا بأحد جرائد الأخبار، فقُلت له:

- صباح الخير يا باشا مصر.. أخبار البلد إيه؟

- صباح النور يا حبيبي.. البلد ماشية.

فقال لي بعتاب:

- برضو قهوة على الصبح يا بني.. ومن غير فطار ومش هتقعد تفطر معايا زي عادتك؟

فقُلت له بحنين:

- غصب عني يا حاج والله أنا متأخر، وانت شايف مصر -أمي- مش هتسِبني أفطر، وكأني رايح الحضانة :)

بعد ذلك قبّلتُ يديه ورأسه مستعدًا للخروج.

***

في تلك اللحظة وأنا أكتب تلك القصة تذكرتُ أبي كثيرًا، تذكرتُ كلماته ونظراته وضحكاته، تذكرتُ حقًا أني لا زلتُ بدونه لا شيء، فقُلت بداخلي بحزن:

- يا ريتني ماكنتُش كتبت القصة دي والفكرة دي جت في بالي.

فأخذَت الدموع تسيل من جفوني، بعدها قمتُ بسمحها حتى لا يبقى لها أثر وأكملتُ كتابة باقي أحداث القصة...

***

عندما نفقد حبيبًا نكتب قصيدة، وعندما نفقد وطنًا نكتب رواية.

- أحلام مستغانمي

ثم بعد أن خرجتُ من المنزل وتدرجت درجات السلم، ألقيتُ السلام على «مالِك» صديقي؛ فهو أيضًا برفقتي بالجامعة، فقال لي بغضب:

- دقيقتين بالظبط وكنت هسِيبك وأمشي.. مش هنلحَق كدة المحاضرة.

فقُلت له بابتسامة:

- طب ده ذنبي إني بحب النوم :)

- .....(صمت)

وبعد أن وصلنا إلى الجامعة بعد عذاب المواصلات قُمنا بالاعتذار لدكتور «سمير» على تأخيرنا؛ فقَبِلَ اعتذارنا، ليس من باب العطف أو من مدى حُبه لنا، لكن لأننا لم نتأخر بالقدر الكافي، وبعد دخولنا لقاعة المحاضرات قامت صديقتنا «دنيا» بالتلويح لنا؛ فذهبنا للجلوس بجانبها، وبعد جلوسي بجانبها قالت بنظرة شاردة رافعة أحد حاجبيها، وقامَت بالتلويح بأصبعها الإبهام وكأنها تقوم بتهديدي:

- تصدّق يا عُمر إن هيجي يوم وهقتلك.

فقُلت لها باضطراب:

- ليه.. عملت إيه؟ بعدين انتِ بتكدبي؛ لأني ماهُنش عليكي يا صديقتي.

فلم يدُم الحديث كثيرًا؛ حيث قام صديقي بالنظر لنا وكأن أعيننه تقول «التزموا الصمت»؛ فقمنا بالاستماع لشرح الدكتور، ولكنني

رأيت علي وجهها ابتسامة هادئة، وبعد الانتهاء من المحاضرة ذهبنا جميعًا إلى الكافيتريا، تناولنا الفطار معًا ونحن ذاهبون، وكان برفقتنا اثنان من أصدقاء دنيا؛ فأصبح فجأة الحديث عن الحب والارتباط.. ابتسمتُ بطريقة مبالغ فيها جعلَت كل من حولي ينظرون وكأنني مختلٌ عقليًا؛ فكلٌّ منا ناقش في هذا الموضوع وأبدى رأيه فيما كنت حينها ملتزمًا الصمت؛ لأنني مؤمن بأن رأيي لن يعجبَ أحدًا؛ ولذلك أردتُ عدم التحدث واكتفيت بسماع كلماتهم التي تخرج من أفواههم، لكني تجنبتُ الحديث والنقاش وهربت من ذلك بمكالمتي لوالدتي لمعرفة ماذا لدينا من طعام اليوم؟ ربما لا أحد لاحظ موقفي وهروبي ذلك.. سوى دنيا.

رأيتُ نظرتها لي عندما حاولت الابتعاد عنهم حتى أتحدث مع والدتي، توقعتُ أن بعد عودتي للمنزل أنّها سوف تبعث لي برسالة، وسوف تتحدث في الأمر فيما حدث اليوم، وما فهمها للموقف! والأهم من ذلك كمّ الاسئلة التي قد تقع عليّ منها؟

- لماذا حاولتَ الهروب يا عُمر؟
- ماذا تُخفِي بداخلك عن أقرب شخصٍ لديك؟
- ولماذا تُخفي ما بداخلك؟.. ألَسْنا أصدقاء؟

ولكن حدثَ بالفعل وأن تحدثنا، ولكن فيما يختص بحياتها ا لشخصية !

يمروقت طويل على فقدكَ لشيء حتى يظن الجميع أنك تجاوزتَ ذلك، لا أحد يعرف أنك ما زِلتَ عالقًا في ذلك اليوم وتلك الساعة تحديدًا، الساعة التي شعرتَ حينها أن كل شيءٍ حلم لا يصدق..

فعندما رأيتُ رسالتها فزعتُ وكاد القلق يقتلني، نابني شعور قاسٍ، وكأن في هذه المحادثة شيئًا سوف يعيدني لماضٍ قد هربتُ منه بكل ما أوتيت من ثبات. كنتُ خائفًا دائمًا من أن أتذكّر تجاربي السابقة، في حاضر أصفه حتى الآن بالجيد.. نوعًا ما.

***

الفصل الأول

« صداقة غامضة»

- عُمر..!

دار حديث داخلي.. «أرجو أن يكون ظني خاطئًا.. لا أريد أن نتحدث عن شيء حدث وقد انتهى»، لكن رددتُ عليها بصوت متلعثم من الاضطراب:

- نعم يا دنيا؟.. فيه حاجة حصَلِت؟.. أصل بقلَق منِّك لما بتناديني باسمي.

لتردّ هي بلهجة من التوتر:

- لا مفيش.. بس تعرف؟

قُلت لها في هدوء:

- حصل إيه؟

تنهدت، ثم قالت بصوت واهن:

- أنا عارفاك من فترة ممكن مش تكون كبيرة.. سنة تقريبًا، بس معرفش ليه كل ما أقرر أحكي حاجة لحد مالقيش قدامي غيرك، بس حاجة تلهمني وتخليني ما أتكلمش.. مش عارفه ليه!

قُلت لها محاولة ردّ ثقتها لها:

- أنا جنبك يا أختي لا تقلقي.. بس ليه بتقولي كل ده؟

- مش فاهم السبب الحقيقة؟

في الحقيقة أنا حاولتُ مرارًا وتكرارًا أن أجعلها تتحدث وبكل ما أوتيت؛ لأنني كنتُ مدركًا بأنها تملك الكثير من الكلمات المعبئة بداخلها، على الرغم من كل هذا الثبات، إلا وأن انهيارك الداخلي ظاهر بكل بوضوح.

تحدثَت بلهجة مغايرة، وكأن الحزن قد سيطر على عقلها، لتقول:

- عُمر، أنا ليه بحسّ إن كل شيء ضدي.. حتى أهلك ممكن يكونوا هُمّا سبب انكسارك وحزنك.. ليه؟.. ليه مش فاهمه.. معلش أنا آسفة، أنا هقفل، عايزة أفضل لوحدي.. عايزة أهدَى.. أنا بهدَى وببقَى أحسن لما بكون لوحدي.

فرددتُ بصوت مزيج بين الحزن والحيرة:

- دنيا، فهميني إيه اللي حصل.. بعدين مش حقيقي، ولو لجزء من كلمة انتِ قولتيها.. أنا أقدر أقنعك بكدة، بس أنا مش فاهم مالك وحصل إيه؟

ثم مرّت الدقائق في تعاقب، وزاد قلقي وتفكيري؛ حيث وصل بي الأمر لتفكيري بأنها قد انتحرت؟ لم أستطع الوصول إليها وكأنه كان حلمًا، لكن سرعان ما قد أرسلَت العديد من الرسائل في جدية شديدة:

- دنيا؟

- دنيااااا...
- طيب أنا قلقان عليكِ يا بنتي ومش عارف أوصل لك!
- دنيا مالك.. انتِ كويسة طيب؟
- يا بنتي حصل إيه؟

مَرّ أكثر من ثلاث ساعات؛ فكانت حينها الساعة الثانية عشرة مساء، وكنت قد شعرتُ بتعب وإرهاق من هذا اليوم المُرهِق فذهبتُ للنوم، تمددتُ على فراشي وأغمضتُ عيني. رنّ هاتفي أكثر من مرة، ربّما تعمّقتُ في النوم في الخمسة دقائق المنقضية، رن هاتفي فاستيقظتُ مفزعًا، بدأت بالبحث عن هاتفي مرددًا:

- مين اللي متّصل في الوقت ده؟!

أمسكت بهاتفي؛ فوجدتها دنيا بالفعل، نهضتُ وكنت حينها قد استعدت نشاطي تلقائيًا لا أعلم من أين جئتُ به، خاصة أنني كنت مُرهَقًا بشدة، قمتُ بالرد فورًا.

بدأَت الحديث وهي تتمتمُ بصوت متقطع حزين:

- عُمر، أنا آسفة جدًا على أسلوبي وكلامي معاك بالطريقة دي، لكن مش بإرادتي.. كنت محتاجة إني أكون لوحدي الوقت ده خصوصًا.

قُلت في محاولة لتهوين ما بها:

- مش مهم ولا يهمك.. إيه اللي حصل بقى؟ احكي مالك..

لترد بنبرة حزينة:

- مش بعرف أجاوب على كلمة مالك دي، مش بعرف أوصف الدوشة اللي جوايا.

فقُلت لها بابتسامة منخفضة:

- خلاص قولي إيه حصل، بلاش تقولي مالك.

فابتسمت والدموع بعيونها، ربمّا أحسستُ ذلك حتى لو لم أرَها:

- أنا ما أعرفش ليه ربنا بيوقعني في الأغبية دايمًا :)

صمتُّ للحظات، ثم ابتسمتُ وقُلت في حنان:

- احكي اللي يخطر على بالك تحكيه أيًا كان هو إيه.. المهم فضفضي وطلعي اللي جواكي بدل الاختناق ده هيموّتك بالطريقة دي!

- هحكي.. بص يا عُمـ....

- ....(صمت)

ثم انقطعَت المكالمة، حاولت الاتصال بها لكن بدا الأمر أن بطارية هاتفها قد ماتت.

***

ثم توقفتُ عن الكتابة، لم أشعر أني أستطيع تتابع الأحداث، وقد سرحتُ بخيالي لوهلة ودار حديث متناقض بداخلي، كيف ذلك وأنا أكتب لأجلها فقط، وتعلمتُ الكثير، فقُلت بداخلي متأملًا ما كتبت:

- «فيا ليتهم يعلمون أن الكتابة مهنة نبيلة، فليست المسألة مسألة فكرة وتسلسل أحداث وحبكة وشخصيات، الكتابة فعل عظيم، مسئولية كبيرة، تتطلب مجهودًا خرافيًا من البحث والاطلاع وكثيرًا

من الأمور الغير واضحة بشتى الطرق، الكتابة تشكل وعي إنسان قد يتأثر بها في حياته، علمتني الكثير، وأهم شيء قد تعلمته أني مسؤول عن كل حرف وكل كلمة وفاصلة أكتبها، فمنذ أن بدأتُ الكتابة فقد علمتني أنّ أصغر الأشياء هي من ترفعك أو تسقطك.»

توقفتُ عند تلك النقطة وهذا الجزء من القصة، قد شعرتُ وأن عقلي توقف كأنني مصاب بمرض الزهايمر، قد حُذفت وخلَت ذاكرتي من الكلمات، ثم تركت الكتابة وأخذت أستمع إلى شريكتي الأخرى، ألا وهي الموسيقى مستمعًا إليها عبر جهاز الراديو القديم الخاص بوالدي، وكان لألحان «فيروز» قد أخذتني إلى عالم أخر؛ فبدأَت أحد أغانيها بالعزف، إلا أن كلامتها اخترقت دواخلي وكأنني كدتُ أرقص على ألحانها عشقًا.. كأنها تقول ما كنتُ أتمنى أن أعبّر عنه لها، ولكني في كثير من الأوقات ما أكتم الكلمات بداخلي؛ فقد سرحتُ وتعمقتُ مع كلماتها فرحًا...

« بليل وشتى...

صوته مسموع...

يا هوى اغمرني...

يا هوى دموع...

تنّين عاشقين...

قاعدين دايبين...

عَم يحكو سوا...

على ضو شموع...

عنهن ببعضن...

إيديهن بردانين...»

ويكفيني أنني كلما مددتُ يدي إليك أجدك معي، مُعينًا كنفسي...
كشيء مني... كروح لا تنفصل عني.

وجدتُ أن لا زال لدي وقت كافي حتى تقرأ كتاباتي، لم أستطع أن أنتظر حتى الغد حتى أعرف رأيها، قمتُ بفتح هاتفي؛ وجدتُ الكثير من الرسائل والمكالمات التي قد تخطّت حد الثلاثين مكالمة! وبعد ثوانٍ قليلة نظرتُ إلى هاتفي وقمتُ بالاتصال بـ طه، وقُلت له في قلق:

- طه بقولك إيه؟

فردّ عليّ بعصبية، وكأنه سيتعارك معي:

- انت قافل موبايلك ليه يا عم انت.. كل شوية بتصل بيك وبرضو مغلق.. وخلود صاحبتك بعتتلي رسالة على النت قلقانة عليك.. فيه إيه يا بني؟ حصل إيه معاك؟

فقُلت له بصوت منكسر:

- أنا آسف والله ماكنتش أقصد كل ده.. أنا عايز أحكيلك، بس قول لي الأول حصل إيه وخلود قالتلك إيه؟

وفي تلك اللحظة جاءني إشعار بأنها تتصل بي، فهمستُ له بصوت واهن:

- طب هي بترن عليَّ.. هقفل أشوفها وهتصل بيك تاني هحكيلك.

أردف إليَّ قائلًا:

- طب انت كويس ووالدتك كويسة؟
- آه الحمد لله احنا تمام.
- طب سلام يا أدهم.

ثم أغلقت معه واستقبلتُ مكالمتها؛ فبدأَت تتحدث في حزم وانزعاج:

- انت حيوان والله يا أدهم، قافل موبايلك من الصبح ليه؟

لم أتمالك أنفاسي، فقُلت لها وأنا مبتسم:

- يا نهار أبيض! هو للدرجة دي أنا غالي عندكم.

فقالت بخجل:

- لا مش غالي.. مين الكداب اللي قال لك كدة؟

وبعد تنهيدة استطردَت خلود بصوت متقطع هادئ يشوبه العتاب:

- أدهم أنا مخنوقة منك جدًا.. ازاي تسيبني اليوم كله وماتكلمنيش وتقفل موبايلك وما أعرفش أوصل لك، خلّتني محتارة ودماغي بتيجي وبتروح.. انت كويس ولا لأ!.. إيه حصل لك!.. انت خلتني أحسّ إن جرالك حاجة بعد الشر عليك يعني، انت رخم وعهد الله.. أنا بكرهك.. انت خلّتني من قلقي عليك كلِّمت طه على النت، بعد ما اتصلت بحضرتك كتير بعتّ لطه إنه يكلّمك أو يكلّم مامتك يشوفك مالك.. بعد كدة كلّمني وقال لي إنك مش بترد.

لا زلتُ أضحك وأكتم تلك الابتسامة بداخلي حتى لا تغضب، وقُلتُ لها مازحًا:

- إيه ده هو كلمك؟

فقالت بتقزز:

- على أساس إنك ماتعرفش.. هو بعَتلي على النت وقال لي إنه قال لك إن أنا كلمته.

كلماتها جعلت الشك يأكل جزءًا من قلبي؛ فبدأت علامات الغضب ممزوجة بالشك تحتلّ تعبيرات وجهي ونبرة صوتي، حتى أنني قُلت لها بلهجة جادة:

- إيه ده! واضح إن انتوا اتكلمتوا كتير وبقيتوا صحاب كمان.

فقالت باستغراب ممزوج بعتاب:

- إيه ده هو فيه إيه؟ انت بتشك فيّا يا أدهم ولا دي غيرة زيادة ولا دي إيه مش فاهمة! لو شكّ فالأحسن لينا احنا الاتنين إننا نقفل علشان هتقلب بخناق ونكد.

ثم صمتَت قليلًا وقالت بصوت خافت:

- بعدين تعالى هنا... انت قفلت موبايلك ليه إن شاء الله؟

فقُلت لها ولا زال الغضب يمتلكني ويستحوذ على صوتي:

- طب أنا هقفل يا خلود.. وهبعتلك حاجة على النت اقريها.. سلام.

ثم أغلقتُ المكالمة دون انتظار منها الرد، ولكن كلماتها عن صديقي التي لا أعلم عنها شيئًا، ولم يخبرني أحدٌ عنها لا زالت باقيه تأخذ من عقلي شيئًا، وكان هذا الجزء قد انتهى وقُتِل، وكأن عقلي أخذني إلى عالم الخيال بوجود علاقة ما بينهما.

ثم أرسلتُ لها ذلك الجزء المكتوب من تلك الرواية، حتى أعلم ما إذا قد أعجبتها أم لا! تركتها تقرأ وأخذتُ أخطّط لأحد مشاريعي المستقبلية، وبسبب حُبي للورد والعطور قمتُ بالتخطيط لافتتاح مشروعي، ولكن فور الانتهاء من وضع جميع الاحتمالات الممكنة له: فأخذتُ ورقة وقلمًا ثم قمتُ بفتح الانترنت وبحثتُ عن أنواع العطور، وأماكن تواجد الخامات الخاصة بها، وأفضل الأنواع والأسعار، ثمّ جمعتُ جميع التكاليف الممكنة لشراء المستلزمات والخامات، ووضعت حدًّا أقصى لرأس المال الممكن حتى أستطيع القول «المشروع يقف على التنفيذ»، ولكني بعد أن قمت بكتابة وحساب جميع التكاليف وجدتُ

أنه لابد من وجود شريك معي، ليس فقط لنقص رأس المال لدي الذي أعتمد كل الاعتماد هنا على تنفيذ المشروع من أموال ومعاش والدي الراحل.

فلم أجد أفضل من صديقي طه حتى أقترح عليه تلك الفكرة؛ فقمتُ بإرسال رسالة له:

– طه، عايزك تقابلني حالًا.

فكتب لي فزعًا:

– ليه هو حاجة حصلت تستاهل ما احنا كدة كدة هنتقابل بكرة.. ولا انت مش ناوي تنزل معايا أصلًا؟

وأنا بداخلي طاقة أريد إطلاقها فورًا في تلك الفكرة، بدأتُ أكتب في جدية:

– يا بني قابلني تحت بيتك بعد نص ساعة من دلوقتي.. هوريك وآخد رأيك في حاجة.

وفي خلال هذا الوقت قمتُ بالاتصال بابن خالتي، أطلب منه أن يستفسر عن أحد المحلّات بالقرب من منزلي؛ فردّت أخته «سلمى» طالبة بكلية طب أسنان التابعة لجامعة القاهرة.. ولكن بطريقة أو بأخرى ومنذ أن كبِرنا بالعمر؛ فكان لأهلنا دورٌ بوضع الحدود العظيمة بيننا، قد وصل الأمر أننا لم نتحدّث مع بعضنا البعض منذ ما يقارب الثلاث سنوات، وبعد أن ألقَيتُ السلام عليها قُلت لها بصوت حنون:

– ممكن يا سلمى تنادي إسلام أخوكِ أسأله عن حاجة.. بعد إذنك.

أعطته الهاتف دون أن تطرّق بالحديث بأي كلمة، ثم قام بالرد؛ فسألته في امتنان:

- أنا عايز خدمة منك.. يا ريت تسأل لي صحابك عن محل حد عاوز يأجره.. بس يكون قريب من البيت.. ويا ريت تردّ عليّا دلوقتي؛ لأن الموضوع ضروري جدًا.

فأخذ يجاوب بنبرة عتاب:

- طب قول ازيك يا بن خالتي حتى.. بس حاضر يا أدهم من عينيّا هسأل لك صحابي وأخليهم يسألوا اللي يعرفوهم وهجيبلك الخلاصة بعد خمس دقايق، المهم انت كويس!.. ومش هتيجي تشرب معانا الشاي.

- حاضر هجيلك، بس أول لما أخلّص الامتحانات.. بس بالله عليك ماتنسانيش وتردّ عليّا دلوقتي.

ثم بدا الأمر وأن بطارية هاتفي كادَت أن تنفَذ، فقُلت له أنني سأعاود الاتصال به بعد خمس دقائق، ثم قمتُ وتركت كل شيء وخرجتُ من المنزل.

استقبلتُ صديقي الذي بدا الأمر عليه وأنه ينتظر حديثي بشوق؛ فشرحتُ له المشروع فوافقني الرأي كثيرًا وبدا الأمر وأنها قد راقت له، ولكني في تلك الحظة رنّ هاتفي، ولكن كان الرقم غريبًا بعض الشيء، فقُلت في عدم اكتراث:

- ألو.

- فيه محل واحد صاحبي هيأجره بعد أسبوعين.. هيمشي وهيبيع كل حاجة، بس هو حابب يأجّر المحل.. بس السعر اللي هو طالبه غالي شوية.. انت هتعمل إيه بيه.. ولا بتسأل ليه أصلًا يا بني؟

- تمام أنا هاجيلك بعد أسبوعين ونقعد ونتفق.. سلام.

نظر إليَّ صديقي نظرة اندهاش، وقال باستغراب:

- يا بني انت لحِقْت تعمل كل ده.. انت مجنون.

فقُلت له مبتسمًا:

- طبعًا.

- المهم يا طه... مش عايز خلود تعرف بالموضوع ده لو تمّ.. عايزها تكون مفاجأة.

- ماشي اتفقنا.. وأنا هشاور بابا وهبعتلك هقولّك قال إيه علي النت.. يلّا روّح بقى الوقت متأخر.

ثم تركته ورحلتُ وعُدت إلى منزلي، لكني قد شعرتُ بشيء من التعب، ولكن طه قام بالاتصال وتحدّث في اصرار:

- بابا وافق وعجبته الفكرة جدًا.. وقال إنه هيساعدنا لو احتاجنا حاجة، أنا معاك.

ثم أردف قائلًا بصوت متلعثم من الاضطراب:

- انت هتنزل معايا بكرة هنتقابل فين؟ وصاحبتك هتنزل معاك ولا لا؟ ولا هتعمل إيه قول.

فقُلت له باستغراب:

- صاحبتي! آه يا طه كلنا نازلين.. بس المفروض هنتقابل في ميدان رمسيس ده أقرب مكان لخلود مني، لو كدة كلمني نتقابل هناك سوا.

فقال بسعادة رافعًا صوته:

- حلو جدًا.

من ثم أغلقتُ هاتفي؛ فقد شعرتُ بتعب جسديّ وذهنيّ شديد، فقد غرقتُ بالنوم وكنتُ لا أشعر بشيء من حولي، قد مُت في حلمي

الـذي بـدأ:

«كنت واقفًا في طريق طويل جدًا وكله ضلمه مافيهوش نور غير عمود نور واحد مكان ما أنا واقف مستني أي عربية تعدّي.. ومن الجهتين الموازين للطريق كانت أشجار طويلة ضخمة موجودة وكأنها بتحاصر الطريق.. مرّت ساعة وأنا واقف منتظر.. ببصّ على شمال الطريق لقيت نور ساطع جَاي من بعيد، من الواضح عليها إنها عربية، ولما قرّبت مني فضلت أشاور لها وهي نورها ضارب في وشي مخلّيني زي الكفيف.. شاورت لها كتير لغاية لمّا قرّبت مني، وفي الحقيقة هي وقفت ويا ريتها ما وقفت.. بصّيت جوّا العربية لقيتها واحدة ست ولما ركّزت أوي في وشها لقيتها «خلود» وكانت بتضحك ضحكة بشوشة خفيفة كدة وضمّة طفل صغير في حضنها.. وبعدها بثواني كانت عربية جايّة من بعيد بسرعة جنونية.. وخبطتها.. فجأة سمعت صوت بينادي شبه صوت نعمة:

– أدهم... أدهم.. انت يا بني... أدهم اصحَى.. فُوق يا بني.. طه كلمني بيسأل عليك.. اصحى كل ده نوم.. طب أهو عشان تصحَى.

ثم استيقظتُ بسبب كمّ الضربات المريبة التي انهالَت عليّ.

***

لا تتركوني وحيدًا مع أفكاري؛ فهي تؤذيني.

استيقظتُ مفزوعًا علي صوت نعمة، ولكني أدركتُ أنّ تلك الخروجة مع أصدقائي قد فاتتني بسبب نومي العميق؛ فاستيقظتُ وأنا شديد الإرهاق والتعب، ولكني وجدتُ صديقي يتصل بي ويتحدث في توتر:

– يا بني انت فين؟ أنا في شارع المُعز مستنّيك، أنا بعتّ رسالة لخلود على النت.. عشان موبايلك كان مغلق، فكنت متوقّع إن انتوا الاتنين مع بعض وموبايلك فصل شحن.. انت فين؟ شكلك نايم في البيت.. صح!

قُلت له بصوت متقطع:

– أنا مش قادر أتحرّك من السرير.. تعبان جدًا.. انت نزلت لوحدك ولا إيه؟

في الحقيقة كل يوم يَمُر بيننا نحن الثلاثة وتزداد شكوكي حول أمر ما بينهما يخفيه أحدهما عني، هذه كانت مشاعري وأحاسيسي التي بسببها أصبحتُ عمّا يدور حولي، أصمًّا، أبكمًا، أعمي.

ولكني على الرغم من ذلك أثق بهما ثقة عمياء، ربما لأن ثقة الناس بأهوائهم وآذانهم أكثر من ثقتهم بأعينهم؛ فأنا أثق بتلك الفتاة؛ لأن الثقة التي أعطيها لها هي أكبر إثبات على حُبي.

فطلبتُ منه أن يذهب لها ويأخذها تتجوّل وتبحث عن ما تُريد، ويبقى برفقتها وبجانبها، أثق بصديقي أيضًا.. ولهذا أستأمنُه عليها وقت غيابي؛ فطلبتُ منه في جدية:

- بعد إذنك يا حبيبي.. عايزك تكون مع خلود وترُوح معاها تشتري شوية حاجات ليها، ولو معاك فلوس حاسِب ولما أشوفك هحاسبك، وماتخلّيهاش نِفسها في حاجة يا طه إلا لما تجيبهولها.. هاتلها اللي هي نفسها فيه.. وخلي بالك منها، واتصل بيّا طمّنّي عملتوا إيه وقابلتها ولا لأ، وأنا هكلمها هخليها تستناك في مكان، وانت بعد إذنك روح هاتها وشوفها هتعوز إيه، أنا مش بثق في حد غير فيك خلّي بالك منها، وهقفل معاك دلوقتي هكلّمها وهكلّمك تاني.. بس قول لي الأول هتعمل كدة ولا إيه يا صاحبي؟

- آه من عينيّا يا صاحبي.. كلّمها.

ليصمت لثوانٍ وأنا أستعدّ لإغلاق المكالمة، ثم همس طه بصوت مضطرب:

- بس أنا بصراحة فيه حاجة نسيت أقولهالك.

ومن ثم في أثناء حديثة أغلقت معه، وقبل أن أقوم بالاتصال بها دارَت كلماته الأخيرة في عقلي وتكرّرَت إلى أن قررت معاودة الاتصال به؛ فقُلت له باستغراب:

- قول نسيت تقول إيه.. مش معاك فلوس بزيادة؟

فقال لي وأنا صامت منصدم:

- فلوس إيه بس! انت عارف أنا معايا فلوس قَدّ إيه، بس فيه حاجة نسيت أعرّفهالك.. هي إن خلود صاحبتك بعد لما بعتّلها وكنت فاكر إنك معاها لمّا كان موبايلك مغلق!.. أنا بعتّلها على النت قولتلها نتقابل، والمفروض كنا هنكلمك احنا الاتنين ونحاول نخلّيك تنزل معانا؛ فانت كلمتني وقولتلي إنك تعبان ومش هتقدر

تنزل من البيت.. وأنا علشان عارف إنك بتثق فينا أنا وهي كلّمتها، ولما اتقابلنا كنا فعلًا هنكلّمك وأقول لك إنها معايا وهخليها تجيب الحاجات اللي هي هتعوزها وهاخد بالي منها.. ومش هخليها عاوزة أي حاجة، بس انت كلّمتني وقولتلي على كل المفروض كنت ناوي أنا وهي نعمله.. وأنا مالقيتش رد أو طريقة أعرّفك بيها اللي حصل، وانت كلمتني وطلبت مني كمّ الطلبات دي مرة واحدة، المهم عايزك تتأكد إني موجود معاها وكأنك انت اللي موجود.. وهي في عينيّا.. دي اختي.. المهم إن هي جنبي أهي وعايزة تكلمك!

فقالت في ارتباك:

- ألو.. انت مانزلتش ليه حضرتك؟ أنا كنت نازلة علشانك.. عايزة بس أوضّحلك إن فعلًا كل اللي قالُه صاحبك طه ده اللي حصل، واحنا كنا لسّة حالًا هنكلمك بس انت كلمتنا الأول واتصلت، أنا أصلًا هجيب الحاجات اللي هعوزها وهروّح، صاحبك جدع جدًا مش سايبني الحقيقة ومش خلاني أدفع أو أعوز حاجة.. احنا قولنالك اللي حصل علشان لازم تعرف، أعمل إيه يا أدهم يا روح قلبي.. أمشي ولا أجيب الحاجات مع طه وأمشي؟ المهم أنا عايزة أقول لك إن صوتك وكلامك كانوا واحشينّي.. انت كُلّك وحشتني أصلًا.

كلماتها جعلت جسدي يرتجف، فقُلت بنبرة حزينة ممزوجة بغضب:

- خلّصي هاتي الحاجات وروّحي يا خلود.. بس لينا كلام تاني، بس لما أطمّن إنك وصلتي البيت.

لمَ لَم أكن عنيفًا معها؟! بدأت علامات الشك تجول في عقلي إلى أن طردتُها بخارجه، فهي التي قد غيّرَت عالمي بالكامل، فهي الوحيدة

التي استطاعَت الوصول لأعماق قلبي، فقد استطاعت أن تنتزع ذاك الجزء الغاضب بشخصيتي؛ فهي فقط من تستطيع تغيير مزاجي في ثوانٍ معدودة. تلك التي كانت تحوّل غضبي وحزني إلى فرحة وسعادة أبدية. في الحقيقة قد سوّلَت لي نفسي يومًا الابتعاد عنها، لكني لم أستطع، فهنا ظهر لي الأمر وأنه لا مفر من الأشياء التي نحرص على الفرار منها. أدركتُ كم هو كبير ضعفي معها عند كل فعل لها، فأبقى صامتًا.. عندئذ أدركتُ أن لا شيء بإمكانه تغيير ما يحدث. سأعترف لنفسي، وهو أنني كنت أخاف عتابك؛ حتى لا يتحوّل العتاب إلى فراق!

***

«١٥ فبراير ٢٠١٧»

كنّا على وشك بدء الفصل الدراسي الثاني «الفرقة الرابعة»؛ قد مرّت الأيام سريعًا إلى أن اقترب موعد افتتاح تجارتي الخاصة.. وبعد مرور الأسبوع الأول، وقبل يومين من سفري لشراء خامات ومسلتزمات المشروع قد تفاقمَت مشاكلي مع «خلود» إلى حد أن انفصلنا، في السابق كان يصل الأمر أننا ننفصل إلى الأبد مرّة كل أسبوع، بينما كانت الآمور بيننا تسوء يومًا عن يوم، وفي يومٍ قد قررتُ فيه إعادة ترتيب الأمور من جديد، وبعد اتفاقِنا على خروجة ما إلى «الأهرامات» بالجيزة، وبعد انقضاء يوم من أسعد أيام حياتي معها.. كنت سعيدًا لأنها سعيدة بسببي، وأثناء خروجنا تحت سماء الشمس الحارقة ممسكًا بيدَيْها كأب يهاب فقدان ابنته.. تفاجأتُ بوجود صديقي بانتظارنا أمام أحد بوابات الخروج! وفي تلك اللحظة ارتجفَت خلود وأفلتَت يديَّ وبدأت علامات التردد عليها، بينما كنتُ أحتضن صديقي.. الذي قد خمنتُ وجوده بأنها صدفة.

ومع ملاحظتي الأمر، قد استحوذ الاستياءُ على وجهى، نظرتُ لهما وقُلت بغضب:

- هو فيه إيه بقى أنا مش فاهم؟.. فيه إيه يا طه؟!

نظر إليها نظرة طويلة، ثم التفتَ إليَّ وقال في استياء:

- مفيش يا صاحبي.

ثم أمسك بيدي وابتسم، وقال في هدوء:

- تعالى نوصّل خلود للبيت وبعدها هعزمك نقعد ناكل.

ثم اقتربَ من أذني وهمس في برود شديد:

- عايز أحكيلك على حاجة بخصوص المشروع.

فذهبنا، وبسبب كلماته الذي جعلت الفضول يأكل من عقلي جزءًا؛ فأوقفتُ لها «تاكسي»، ابتسمتُ وتمتمت بنبرة اطمئنان:

- لما توصلِي كلميني.. خلي بالك من نفسك يا روح قلبي.

- حاضر يا حبيبي وانت كمان خلّي بالك من نفسك، أدهم بقول لك قرّب هقولّك حاجة.

فاقتربتُ منها وهمست بصوت متقطع مضطرب:

- أنا بحبك ومش عايزة أبعد عنك، خلّيك معايا دايمًا.. انت وجودك بيطمّني.

نظرتُ لها في صمت.. فذهبَت العربة بعيدًا، بينما كانت تنظر إليَّ بشدة وكأنها تودّعني، أخذَت السيارة تسير للأمام بسرعة إلى أن

اختفت عن أنظاري؛ فالتفتُّ وتحدثتُ إلى طه وقُلت له بجدية:

- احكي بقى فيه إيه؟ أنا ركّبْتها وخليتها تمشي عشان نعرف نتكلم.. حسّيت إن جوّاك كلام كتير.. أنا عايز أسمعك.

- أدهم احنا صُحاب من زمان صح؟.. مش عارف كلامي هيفيدك أو لا، بس أنا عايز أحكيلك اللي حصل.. واللي بيحصل واللي هيحصل، بس هنتفق اتفاق.. هو إن بعد كلامي ده مش هتشِيل ولا تزعل مني، وهتحاول تعمل بيه.. متفقين؟

- كمل يا طه.

- متفقين يا صاحبي؟

- متفقين.

ليكمل حديثه، وقال في جدية:

- تمام.. خلود صاحبتك من ساعة ما انت عَرّفتها إن أنا عايز أتعرّف عليها دخلت كلمتني على النت وبدأت تفتح مواضيع وكلام كتير لغاية ما الكلام ما بينّا زاد، وبقينا بنتكلم كل يوم تقريبًا، عِرفِت تقريبًا عني كل حاجة، وعرّفتها على «بابا» واتكلّمنا في حاجات كتير، وأهمّهم في اللي ما بينكوا، وهل هي بتحبك زي ما انت بتحبّها؛ فسألتها قبل كدة: إن أنا بحسّ إنِك مش بتحبي أدهم زي ما هو بيحبك... هل ده حقيقة زي ما أنا بحس ولا أنا إحساسي كداب؟! وبسبب كلامنا أنا وهي اللي تقريبًا عدّى عليه أكتر من شهرين؛ فكنا صحاب وبتحكيلى اللي في قلبها، قالت لي إنها بتحبّك بس مش بتعرف هي هتفضل تحبك لامتى، مش عارفة هل انت هتقدر على متطلباتها وهتعيّشها زي ما هي عايزة تعيش أو لأ.. هتقدر تعمل

لها كل اللي هي بتحلم بيه؟ هي عارفة إنك بتحاول تعمل كل اللي نفسها فيه وبتحلم بيه.. بس هي بنت وهيجي عليها فترة ملل، وفي الفترة دي أي بنت بتتمنّى إن شخص يتكلم معاها ويهتم بيها كتير.. وقالتلي إن انتوا بقالكوا فترة بتتخانقوا كتير.. تقريبًا حسِّيت من كلامها إن هي الفترة اللي هي كانت علشان انشغالك في المشروع والحاجات اللي كانت في دماغك، كنت عايز أقول لها السبب والموضوع افتكرت إنك خلّيتني أوعدك إني مش هقول لها غير لمّا كل حاجة تتمّ والمشروع يكون على الافتتاح.. فقالت لي جملة خليتني أتاكد إن هي ماحبّتكش يوم ولا هتحبك..... (صمت)

تحدثتُ له بصوت منخفض ممزوج بهدوء قاتل:

- قول أنا بسمعك.

فأكمل حديثه في اضطراب:

- قالت لي إنها كانت بتحسّ بشيء تجاهى يا أدهم.. وإن هي فيه عريس اتقدّملها الأسبوع اللي فات وأهلها موافقين.. وهيّ شِبْه موافقة.. وقعدِت تكلمني هو معاه إيه وفلوس قَدّ إيه.. بس هي خايفة تكلّمك في الموضوع؛ لأنها مش عايزة تكسرك، فاكريا أدهم اليوم اللي كُنا مفروض ننزل فيه سوا «شارع المُعز» وانت تعبت ومانزلتش معانا؟ بعدها بيومين بعتت لي وكلّمتني وقالت لي الموضوع ده.. ومن ساعتها أنا وهي مش عارفين نجيبهالك ازاي؛ فهي قالتلي إن النهاردة هتخرجوا سوا في «الأهرامات»، وهي خدِت قرار إنها تقول لك الموضوع، أنا قلِقْت من ردّة فعلك فقُولت أجيلكُم، فلمّا شوفتك ماسك إيديها وبتضحكوا وفرحانين استغرَبت جدًا... انت دلوقتي عرِفت كل حاجة، هتعمل معاها إيه بقى؟

وبعد أن ساد الصمت لفترة، عنفته وقُلت في حزم:

- انت بتقول إيه؟ يعنى انت عايز تقول إن كل ده بيحصل من ورايا؟! أنا مش مصدقك، ازاي هي تعمل كدة وهي أصلًا بتحبني؟ ازاي تعرف غيري أصلًا وتقرر تسيبني وتبعد عني بالطريقة دي؟ ازاي وهي بتقول لي بحبك؟ وتبقى مع غيري تقولّه نفس الكلام.. ازاي كده؟! مش معقول ده يحصل أصلًا، دي هي عارفة هي إيه عندي وقَدّ إيه بحبها.. دي هي الوحيدة اللي بحسّها شبه أمي.. الوحيدة اللي حسّيت إن ربنا بعتهالي وكأنه بيعوضني عن أيامى اللي فاتت.. الوحيدة اللي خلّت لحياتي معنى.. ازاي تمشي كدة.. دي شقلِبِت حياتي للأحسن، ازاي تدخل حياتي تخطَف قلبي وتمشي كدة وكأن مفيش حاجة حصلت؟ لا لا.. أكيد فيه حاجة غلط في الموضوع، أنا هتصل بيها أتأكد.

لم أتمالك أعصابي وكأن صخرةً سقطَت عليَّ وحطَّمت ما تبقّى مني، وبعدما أمسكتُ هاتفي وقررتُ الاتصال بها، مرّت دقائق وأنا أنتظر لمسها لزر استقبال المكالمة، وبتلقائية عاودتُ الاتصال، وبعد عشرات المرات التي لم أجد منها إجابة استقبلتُ رسالتها منصدمًا:

- أدهم أنا هتخطب الأيام اللي جايّه، مش عارفة طه قال لك ولا لأ.. بس أنا حبيتك بجد.. حبيت كل حاجة فيك حتى سكوتك حبيته.. حبيت لهفتك عليّا.. وازاي بتحاول تساعدني وتفرحني، أنا ما أستهلكش، انت بني آدم كويس.. ابن ناس.. محترم.. طموح.. وبتحب اللي حواليك.. ومابتعرفش تكره حد؛ لأن قلبك أبيض، انت لسّة بدري عليك يا أدهم.. احنا تقريبًا استعجِلنا من البداية، تعرف إن خوفي من إني أخسرك في يوم خلّاني أخسرك دلوقتي.. انت حد جميل قوي بجد ومايترفضش، انت تستاهل بنت أحسن

مني مليون مرة بجد، تستاهل واحدة تقدّرك وتحبك بجد، أنا آسفة والله جدًا؛ ماكنتش أقصد أكسرك.. أنا فكّرت ألف مرّة ازاي أقول لك، أتمنى إنك تسامحني.. وصدقني هتفضل ذكرى جميلة جدًا عندي وأحسن وأحنّ وأجدع شخص قابلته في حياتي.. بتمنّى ليك الأفضل بجد عشان انت تستاهل الأفضل فعلًا..

***

لن يُؤذيك من تتوقع منه الأذى، سيُؤذيك من كان أمانك؛
لذلك كان الأمر الوحيد الذي نجحتُ في الاعتياد عليه، هو
التظاهر بأن الأمور تجري على ما يُرام... وهي ليست كذلك.

قد نسيتُك منذ مرور اليومين وخمسِ ساعات وعشرة دقائق وثمانٍ وأربعين ثانية على غيابك، لا أتذكرك ولا أتذكر كلماتك ولا نبرة صوتك ولا ابتسامتك التي لا زالت تشرق حياتي بعد ذبولٍ ظننته سيزول، لا زلتُ منصدمًا حيال أمرك. لا زلتُ غيرواعٍ لِمَ فعلتم بي ذلك؟ فبعد فراقكِ بيومين لم أستطع منع عقلي ونفسي من التفكير بك، فأخذتُ قرارًا بمحادثتك.. وكالعادة لم أتلقَّ أي ردٍّ منكِ، قمتُ بفتح «فيسبوك» بحثتُ عنكِ، وتجوّلت بصفحتكِ كثيرًا، تجولتُ بصورِكِ وكلماتكِ وابتسامتك الزائفة.. إلى أن جذبني أحد منشوراتك الخاصة المُعلّق عليها من كثير من أصدقائك يهنئونك، وكان ضمنهم صديقي «طه» الذي لم يُحادِثني منذ يوم فراقنا، قرأتُ تعليقاتهم السخيفة:

- «ألف مبروك يا عروسة..
- أجمل بنوته في الدنيا...
- ألف مبروك يا حببتي..
- مبروك عقبال الفرحة الكبيرة.. ربنا يتمّم لك على خير..»

ثم خطف أنظاري تعليق صديقي الذي قتل ما تبقّى من قلبي، فكان تعليقه:

- «الله يبارك فيكم جميعًا.. تنورُّونا في الفرحة الكبيرة إن شاء الله!»

نعم عزيزي القارئ؛ فهو صديقي من باعني بأرخص الأثمان، وكان صديقي هو العروس الذي تحدث معي عنه، خُذلتُ كثيرًا، لكن هذه المرّة كانت أشبه بالموت تمامًا، كالموت ببطء.

كان كل من يُوضَع في مقارنة معه ستكون مظلمة له، من كنت أخاف خسارته يومًا خسرني بل وكسرني، لم أخفِ نظراته وتلميحاته وانجذابه لها منذ أن جعلتهما أصدقاء، ولكني كنتُ أبرّرها دومًا بأسباب أخرى كثقتي التي ترمّمَت بسببهم، من شدة غضبي أمسكتُ هاتفي ضاربًا إياه بالحائط، ثم سقط أرضًا كفاظة كُسِرَت ولم يبقَ بها شيئًا سليمًا حتى، كقلبٍ هرب إلى أحدهم يحكي له عن خيباته فصفعه.

مرّت الايام وهي تشبه بعضها كثيرًا، زادت رغبتي بالابتعاد عن الجميع، تفاقمَت عزلتي وحبي لغرفتي وهدوئها، ربّما رأيتُ محاولات والدتي المستمرة لمساعدتي للخروج من تلك البقعة المُظلمة؛ فالتراكمات لا تعرف عزيزًا، يا ليتني لديّ طاقة لأشكرها، استمرَّت محاولاتها إلى أنّ خوفها من الفقدان المحتمل أخذها لحجزي بأحد «المصحات النفسية»، مرّ عليَّ في رحلة استعادة ما تبقّى من روحي، إلا أنّ تلك الأوقات العصيبة جعلتني أدرك مقدار التمييز بين جميع الاشياء التي طالما رغبتُ بها، أحببتُ القراءة والكتابة في تلك الأوقات، إلى أنني كنتُ أكتبُ في اليوم عشرات الرسائل التي تخرج من جذور انكساري بشكل تلقائي؛ فنحن ضعفاء الأرض لا نملك شيئًا من الجسد، من تلك اليدين، من وجهنا، من سواد العينين، خذوا بقايا روحنا البيضاء، خذوا نظراتنا البائسة، أصدقائنا وأحبائنا الخائنين خذوهم جميعهم، أما قلوبُنا فرفقًا بها، وبالرغم من كل تلك المعاناة إلّا أنها جعلَت مني شخصًا لا يُهزم بسهولة؛ فنحن الذين نولد من المعاناة عظماء.

***

«مُكابَدَتُكَ لِنَفسِكَ حربٌ لا نهايةَ لها.»

- جلال الدين الرومي

أكتبُ لكِ وأنا في إقامة ليست بطويلة لدى طبيبي النفسي، الذي يقول أنني لست بمريض نفسي كما يدّعون، قال لي أنني بحاجة فقط لإخراج ما بداخلي من «كَبْت» بسبب المشاكل والضغوطات التي تفاقَمَت وعلاجها بالحديث معه؛ فقط لأنه أيضًا من يستطيع أن يجعلني أفضل مما كنت عليه، اليوم قد مرّعلى حديثي معه، أو بمعنى آخر جلسات العلاج النفسي هذه، مدة الشهرين، كنت آخذ جلستَين في الأسبوع الواحد، لقد كنتُ جالسًا معه في مرة وهو يتحدث مع «أمي» ويقول لها بكل برودة أعصاب:

- أدهم مُصاب بمرض الذهان «البارانويا»، ودي حالة مرضية بتتمثّل بحاجة اسمها جنون الارتياب من الاضطهاد في بعض الأوقات؛ بحيث إن المريض ده بيعاني من عُقدة تجاه المجتمع.. ظنًا منه إن الناس كلها عاوزين يتخلّصوا منه بإيذائه.. هو في العموم بيكون الشخص ده في غاية المنطقية والوعي؛ بحيث يخدع المحيطين به ويوهمهم بفكرة اللي هو شايفه صح.. هفهّم أكتر حضرتِك.. حالة البارانويا أو مرض الذهان ده مرض نفسي تمام؟

فقالت بنبرة حزينة، والدموع تغمر أعينها لكنها لم تسقُط بعد:

- تمام يا دكتور، معاك كمل.

فأكمل حديثه بجدية:

- بيكون المريض خلاله غير عالِم بحالته؛ فلا يعالج.. والشخص اللي زي أدهم كده بيعاني من أمراض هذيانية.. المرض ده عبارة عن الاعتماد على الشرح والفهم الخاطئ للمعلومات.

ثم أمر الدكتور أحد الممرضين بإخراجي وأخذي لغرفتي الخاصة، وهي رغبه « أمي» حتى لا أختلط بباقي المرضى وتسوء حالتي أكثر؛ فأكمل الطبيب حديثه في إصرار:

- بيكون الأساس موجود، لكنه بيفسّره بطريقة خاطئة.. على سبيل المثال.. في الحالات الطبيعية لما بتجري مقابلة مع شخص معين.. بيستعين المُحاور بآلة تسجيل؛ عشان يسجل ويحفظ الكلام بدقة وأمانة، لكن بقى الشخص اللي بتجري معاه الحوار مُصاب بالذهان أو البارانويا.. بيختلف تمامًا، هو ممكن يظن إن آلة التسجيل أمامه لتخدم المحاور في إن المريض يغلط في الكلام.. ويسجل كلامه الخاطئ ده، وإنه يقيم دعوة عليه في المحكمة علشان هو قال معلومات غلط؛ فيفكر إنه ممكن يتسجن بسبب كده؛ فيتعمد إيذاء المحاور محاولة دفاع عن اللي ممكن يحصل له قبل ما المحاور هو اللي يأذيه الأول، فلو هنا المريض بالذهان مابدأش في جلسات العلاج النفسي من بدرى ممكن الحالة تتفاقم، وأنا بصراحة متفائل إن أدهم هيخفّ بسرعة رهيبة، وعلى فكرة هو من بعد أول جلستين وهو في تحسن.. أنا خرجته برّه عشان أكلمك في موضوع مهم، أدهم عنده موهبة كبيرة وهي الكتابة، بجد كتاباته بتكون خارجة من قلبه، هو لسّه بيبعت رسائل لصديقته السابقة.. وفاكر إنها بتوصل لها، بس احنا بنقرأها وبنحتفظ بيها عندنا، وده نوع من الحماية الغير مباشرة، إذا ربما لو الكتابات دي خرجت برّه ووصلت للناس المقصودة حالته ممكن تسوء؛ عشان كدة خرجتُه مش عايزه يسمع كده ويتوقّف عن الكتابة، حضرتك أنا متفائل وأقدر أقول لك إن أسبوع كمان وأقدر أبشرّك إنه هيرجع زي الأول وأحسن، ودي مجموعة الرسائل اللي هو بيكتبها..

تقدري تخليها معاكي لو تحبي، بس ممكن أنصحك نصيحة؟

نظرت إليه نعمة نظرة تساؤل، وقالت في ارتباك:

- اتفضل يا دكتور.

ليستمر الطبيب في حديثة، وقال في هدوء:

- أدهم شغوف بالكتابة ممكن تساعديه في كده.. وحاولي تقفي جنبه وتنمّي عنده الموهبة دي، ممكن تشجعيه إنه يكتب كل اللي هو مرّبيه ويخليه ذكرى، ربنا يوفقه.. خيرما تقلقيش يا أم أدهم، واتفضلي الرسائل.. نورتي.

فخرجت، وهي في طريقها للخروج من المشفى فتحت نعمة الرسائل التي أكتبها وهي تنظر، ورأيتها تتمتِم ببعض الكلمات الغيرمسموعة، وأنا أطلّ عليها من نافذة غرفتي الخاصة، وتكاد الدموع تسقط فأخذَت تقرأ.. فعلمتُ أنها أمسكت بآخر رسالة كتبتُها وهي:

- إلى أحدهم...

«أنتِ معي في كل شيء إلا واقعي...»

«أكتبُ لكِ وأنا في إقامة ليست بطويلة لدى طبيبي النفسي، الذي يقول أنني لست بمريض نفسي كما يدّعون، قال لي أنني بحاجة فقط للحديث مع شخص متخصص لا أكثر؛ حتى أصِل لأفضل حالة؛ فأنا لستُ بمريض، بل بسبب المشاكل والضغوطات التي تفاقَمَت أصبحتُ أحب العزلة، قد أُصِبتُ به فلمّا اشتدّ عليَّ الخناق.. بسبب تذكّري لتلك الأيام، سألتُ نفسي كثيرًا.. لماذا خُذلتُ بهذه الطريقة؟ وأنا لم أقترف أي خطأ تجاههم؟ لماذا يتركوني بهذه

الطريقة بعدما وثقتُ بهم؟ أنا لم أستحق كل هذا؟ لمَ تركتِني يا حبيبتي؟! فأنا لم أفعل شيئًا تجاهك سوى كل خير! أهل هذا جزاء حبي لكِ؟ قد أحببتكِ بكل ما عرفتُ للحب من معانٍ، ولكني الآن قد انكسرتُ بسببك، سأعترف أن رغم كل ذلك ينتفضُ قلبي عند سماع اسمك.. يقفزويكسرروتين وحواجزالماضي الذي لم يغفل عني لحظة، أود أن أشكرك في الحقيقة لأنني هنا بسببك، لكن كوني على ثقة عند خروجي ستندمين حق الندم على هذا الخطأ، ليس من باب العذاب لا تقلقي؛ لا زلتُ محتفظًا بما تبقى لكِ من ذكرى معي؛ فأنا أستمدُ قوتي منها.. منذ دخولي في هذه الحالة وأنا أكتب لكِ، لا أعلم إذا كانت رسائلي هذه تصل لكِ أم لا، لكن أنا لا زلتُ أحبك بغضّ النظرعما يحدث، أحبكِ بالفعل، لكن كوني على يقين لن تعودي لحياتي ثانية، بينما أنا سأكبروسأبدأ تجارتي وعملي، وسأبحث عن الحياة التي قد سُرِقَتْ مني عندما أغفلَ قلبي وعقلي عما يدور حولي من روائع لم أكُن أدرك كم هي عظيمة، كنت مغفلًا عندما تركتُ كل ذلك وجعلتكِ أهم ما في حياتي.. سأخبرك شيئًا آخر:

«أودّ شُكركِ للمرة الثانية، لكن هذه المرة مختلفة؛ لأنها تعني لي الكثيرالآن.. أشكرك لأنكِ جعلتِ مني شخصًا يهوى ويعشق الكتب ورائحة الكتب، تلك التي بقيتُ أبحث عن نفسي فيها فأراكِ عندما أتنقل ما بين حكاية وأخرى، وفي النهاية يبدولي وكأن الجميع اتفقوا أن يذكّروني بكِ، هذا ليس ضعفًا، بل أنا الآن أقوى بكثير، سيحين اليوم وتأتي لتشهدين على أول نجاحي الذي جعلتِني شغوفًا بها.. ألا وهي الكتابة، سأتجه الآن لِمَا أحببتُهُ بسببك؛ لذلك لا أرى في بُعدكِ الشيء المميت، بل في الحقيقة كانت محطّة ونقلة غيّرَت مجرى حياتي وتفكيري، في الماضي كنتُ أكتب من باب التقرب لكِ،

أما الآن فأكتب لنفسي.. أما أنتِ فكوني على يقين أنكِ من الآن ستكونين ضمن لائحة تجاربي القذرة، ولكن كما قُلت لكِ سابقًا؛ فالشخص دائمًا ما تُعلّمه المواقف.. فقط دَع الأيام تعلّمك، كُلٌّ منّا لديه تجارب ومواقف كانت هي موطن التكوين الداخلي والخارجي للشخص، وهو بذلك يتغير كليًا.. أشكركِ عزيزتي؛ لأن بُعدكِ جعلني أقوى.»

***

ليس كل وجع انكسار ونهاية، ربما كان الوجع نقطة بداية؛
فأحيانًا نحتاج إلى صفعة قوية ومؤلمة لنستيقظ من أوهامنا!

ومنذ حادثتي، وعندما أصبحتُ بصحة جيدة خطر ببالي فكرة؛ ألا وهي إنشاء صفحة على المواقع التواصل الاجتماعى « الانستجرام»، وأستطيع من خلالها أن أكتب وأنشر ما استحسَنَت لي الفرصة والوقت بكتابته، ولكن في الأساس لم يكن لديّ هدف أو غرض من إنشاء تلك الصفحة سوى فقط محاولة لإخراج الكلمات التي بداخلي التي دائمًا ما تخرج في شكل من أشكال الصمت؛ فأنشأتُ صفحة تحمل عنوان «انكسار»؛ فهي الحقيقة كانت تحمل بداخلها ما يُعبّر عنه اسمها.. محاولة مني إخراج ووصف حالتي المنكسرة، وفي خلال أسبوع واحد قد ازدادت الصفحة تفاعلًا بشكلٍ ملحوظ، إلى أن أصبحَت الآن تضم عددًا لا بأس به من المتابعين، كانت الأعداد تقارب حد الخمسة آلاف متابع، ومع محاولتي التوفيق بين تجارتي وعملي وبين كتاباتي التي راقت لبعض من هؤلاء الناس.. علمتُ عن اقتراب موعد افتتاح معرض القاهرة للكتاب، أمسكتُ هاتفي وفتحتُ أحد مواقع التواصل الاجتماعي، وعثرتُ على المعلومات التي كنت أبحث عنها عن مواعيد افتتاح معرض القاهرة الدولي للكتاب، وأنها تنحصر ما بين الأسبوعين القادمين؛ مما يتثنى لي فرصة الذهاب وشراء ما يروق لي مما أقرأه، وبعد مرور الأيام التي كانت تشبه بعضها كثيرًا؛ قد مرَّ الاسبوعين سريعًا، قررتُ الذهاب يوم الغد.

***

استيقظتُ وبداخلي طاقة رهيبة، وكعادتي قبّلتُ يدَ ورأس والدتي، ذهبتُ للاستحمام، ومن ثم انتهيتُ منه وتوجهتُ إلى غرفتي مجددًا ولابسًا ملابسي، وذهبتُ بعدما ودّعتُ نعمة، خرجتُ من منزلي وتوجهتُ إلى أماكن الانتظار، وركبت الاتوبيس العام لأصل إلى أقرب مكان

بالقرب من المعرض؛ فنزلتُ وتوجهت نحوه، دفعت وأخذت تذكرتي، ثم تجولتُ بساحات المعرض ذاهبًا هنا وهناك.. أتجوّل بداخل القاعات التي تضمّ مجموعات شاسعة من الكتب، ثم استوقفتني نفسي؛ فجلستُ لأقرب مكان بالقرب مني، ثم نهضتُ وتحركتُ؛ فذهبت إلى أحد الأجنحة الموجودة بقاعات المعرض؛ فنظرتُ أمامي في ذهول مندهشًا من المفاجأة!

صُدمتُ حين علمتُ بأن تلك الفتاة صاحبة النمش، تلك التي أعطتني القلم يومًا، عندما رقصَ ورَجَف لها قلبي كالطبول الإفريقية، وأجهلُ السبب من ذلك، قد رأيتها يومًا في معرض القاهرة الدولي للكتاب. لا أصدق أنها أصبحَت كاتبة، اللعنة؛ فقد علمتُ الآن أنها قد أصدرت روايتها الثانية.

صُعقت فهي كانت مفاجأة لي، وقد ازداد ذهولي ودهشتي عندما نظرتُ لها وهي توقّع لأحد الفتيات مبتسمة لها، وأمسكَت بقلمها وقامت بالتوقيع للفتاة على كتابها، فكانت سعادة عارمة على وجهها، في الحقيقة ابتسامتها كانت كالريح الذي تغلغَلَ بداخلي؛ فنقل شيئًا من سعادتها داخلي، ثم هَمَّت بالحديث مع تلك الفتاة بأسلوبها اللبق وطريقة منطقية مُذهلة، فالتفتُّ آخذًا بروايتها وبدأتُ أقرأ ملخص كتابها الموجود بالخلف، أقرأ في تمعّن وحذرتام، كنت أقرأ وكأني ناقد، في الحقيقة لم أتمكن سوى بالاعتراف بداخلي وبمدى روعة كتابها وقوة أفكارها الذي بدا لي في بداية الأمر أنها خرجت بشكل عشوائي.

لكن سرعان ما قد زاحت تلك الجملة من عقلي تمامًا عندما أخذتني كلماتها، إلى أن تفاجأت بوصولي للصفحة الرابعة والعشرين.. يا الله ما هذا؟! الرابعة والعشرون في هذا الوقت، لم أعرف أهَل من تعلُمي وقراءتي للكتب بدا لي الأمر أنني أستخدم القراءة السريعة، أم

لأسلوبها السلس وأفكارها المترابطة كان لها رأي آخر؟! لكني أعترف أنني وقعتُ فريسة بين كلماتها؛ فقررتُ شراء روايتها، وبعد شرائي لها نظرتُ إليها وأنا أتسمّر في مكاني، بينما هي كانت منشغلة بعض الشيء مع مجموعة من الفتيات الذين قد خمنتُ بأنهم أصدقائها؛ فنظرت لها متأمِلًا في تفاصيل وجهها البشوش، أخذتُ أتمتمُ بداخلي وأنا مندهش بصوت منخفض:

- «إيه ده! أنا مش مصدق إنك طلعتي كاتبة.. يااااه على الزمن والصدفة، لا مش بس مؤلفة وكاتبة.. لا وناجحة، وده باين من إنها أُصدر ليها رواية قبل كدة، ودلوقتي بتسطر تاني خطوات نجاحها بتاني رواية ليها، أنا مش مصدق إن دُفعتي فيها شخص ناجح وبدأ يخطو أول خطوات حياته وهو في سن «٢١ - ٢٢» سنة، بالنسبة للسن؛ فهي صغيرة، على كدة ده احنا المفروض نكون في أواخر مراحل التخرج، بس أنا مبسوط عشانها جدًا معرفش ليه.. يمكن عشان هي صغيرة! طب هي ازاي عملِت كدة في السن ده، أنا فرحان جدًا إن فيه ناس صغيرة في السن وكبيرة بالعقل ورصانته زيها كدة، أنا فرحان للمكانة اللي هي وصلِت لها دي، بس ثواني هو أنا فرحان ليها قوي كدة وكأنها حد قريب مني؟ سيبك منها يا أدهم أحسن..»

ثم استمر حديثي الداخلي طويلًا وأنا ما زلتُ أقف في مكاني:

- ازاي أسيبني منها؟! أنا كنت عايز أعرف اسمها إيه.. كنت عايز أسلّم عليها حتى لو ماتعرفنيش أو مش فاكراني.. لا مش هينفع.. انت فين وهي فين دلوقتي.. بعدين انت لسّه خارج من علاقة مش سهلة عليك إنك ترجع زي زمان.. انت خرَجت من علاقتك وعايش ملازم خوفك.. خوفك من القرب، «فوبيا» إنك تقرب تتساب،

انت خرجت منها ومعاك وجَع يكفّيك سنين قدام.. وجع خلّاك شخص متكسّر ألف حتّة... لا ثواني.. كنت عايز أعرف اسمها ايه.. أنا هروح أكلمها... لا اوعي تعمل كدة.. ولو على اسمها يا سيدي هتلاقيه مكتوب على الرواية اقرأه.. دا الأفضل ليك... إيه ده تصدق عندك حق.»

ثم نظرتُ إلى الرواية بشغف ولهفة كبيرة ممزوجة بسعادة؛ لان تلك الفتاة كانت الوحيدة التي قد عجزت عيني عن تجاهلها منذ خروجي من تلك البقعة، ربما قد استطاعت فكّ شفرة الحب، قد حركَت قلبي من مكانه بعدما خُذل من أقرب الناس، هل شُفيَ قلبي من طعناتهم السابقة له؟ تجاهلت كل ذلك ونظرتُ للرواية لمعرفه ما هو اسم تلك الفتاة.

فبدأت أقرأ حروف اسمها ببطء وكل حرف على حدة، أتَهَجى اسمها وكأنني أُمِيٌّ لا أعرف القراءة والكتابة، ولكني كنت أتلذذ وأنا أقرأه، فقولت في اهتمام:

– إ.. سـ... ر.. ا.. ء

فقُلت بعدها بصوت عالي مسموع:

– إسراء!

***

(٣)
إسراء

- مبروك ياحبيبتي الرواية التانية ليكِ.. من نجاح للتاني يا رب يا ختي.
- الله يبارك فيكِ يا «رحمة»، متشكرة جدًا على وقفتك جنبي طوال الفترة اللي فاتت دي.

فقالت رحمة بحذروصوت خافت:

- إسراء بقولّك إيه.. انتِ واخدة بالك مين موجود في القاعة وأنا شوفته اشترى روايتك النهاردة وكان باين انه مبسوط وهو بيقرأها؟

فارتسمَت علامات التعجب على إسراء؛ فسألَتْها بصوت منخفض رافعة أحد حواجبها، وقالت في اندهاش:

- هيكون مين يعني؟! أنا حتى مش كاتبة مشهورة أو حتى بعترف إن أنا ناجحة في حياتي أصلًا، بس قوليلي مين ده اللي انتِ تعرفيه اشترى الرواية وكان مبسوط للدرجة اللي بتحكيلي عنه بيها دي.

فقالت رحمة بثقة وهي مبتسمة:

- أدهم... أدهم!.. فاكراه؟ اللي كان معانا في ثانوية عامة يا جميل.. نسيت الهوا ولا إيه؟

ثم أردفت رحمة قائلة:

- طب أفاجئك بقى؟ بصي كدة هناك.. شوفي مين متمسْمَر مكانه وواقف ماسك الرواية وبيقرأها.

ثم نظرَت إسراء أمامها بلهفة غير مصدقة أعينها وصِدْق كلام صديقتها؛ فهو يقف متأملًا بروايتها ناظرًا في تمعن وكأنه يلتهم سطورها بتمهل، قد بدا الأمروكأن روحه تتشرّب الكلمات، ولا زال الذهول على وجهها؛ فبدأت تحدِّث نفسها في ذهول:

- «ده هو أدهم فعلًا.. أنا عايزة أرقص من الفرح.. ليه كدة يا رب بس أنا لسه بفرح لما بشوفه؟ يا رب ليه كدة يعني بعد اللي أنا عرفته عنه ومن ساعتها قررت إن أنا مش هبصّ عليه تاني أو هركز معاه، وتمر الأيام والشهور وبعد الفترة دي كلها تجمعنا صدفة، وفي يوم مناسبة خاصة، في يوم أنا الحمد لله وصلت لجزء من أحلامي.. مش مشكلة كل ده، أنا فرحانه إني شوفته جدًا، بس أنا أعمل إيه دلوقتي.. أتكلم معاه ولا لأ، طب أفضل ساكتة زي زمان وأضيع فرصة زي اللي ضيعتها ولا.. يا ترى عجبته الرواية طيب ولا إيه؟ يا ترى طيب جيه المعرض مخصوص عشان الرواية؟ ولا الصدفة هي اللي جابته.. يا ترى هو لسه فاكرني طيب ولا لأ؟ أعمل إيه أنا دلوقتي.. طب أنا لو كلمتُه هتكون نظرته ليا إيه.. لو كلمته هيشوفني ازاي؟ وأجيب منين الجرأة دي كلها اللي تخليني أرُوح أكلمه وأنا عمرى ما ادّيت فرصة لحد يكلمني أصلًا؟ اشمعنى ده بس اللي بحس إنى غايبة عن الوعي لما ببصله.. اشمعنى؟ بس هو

شكله محترم قووي ولو عملت كدة هيفتكرني بنت مش كويسة، إيه ده بس يا ربي.. أووووف.»

وبعد تنهيدة طويلة، قالت بداخلها:

- كان نفسي تحس بوجودي.

ثم تفِيق من غفلتها على صوت صديقتها:

- الجميل سرحان في إيه يا ترى؟ واضح إنه وقع تاني لما شاف الهوا زي زمان.

فنظرَت لها وأجابتها في حزم:

- لا مفيش حاجة.. هو ممكن أطلب طلب منك؟

فقالت رحمة بجدية:

- أكيد يا روحي من عيني الاتنين.

فقالت لها باشمئزاز:

- ممكن تقعدي ساكتة وتبطّلي تبني حاجات على وهم.. أكيد هو عايش حياته مبسوط مع خلود.. ربنا يوفّقُه.

فألقت رحمة نظرة خاطفة على أدهم، ثم نظرَت لها مجددًا، وقالت بنبرة حزينة:

- عايش حياته ازاي يا بنتي؟ انتِ مش شايفة ملامح الحزن اللي على وشه، روحي كلميه يا إسراء أحسن.. على الأقل تكوني مش ندمانة زي ندمك زمان إنك ما أخدتيش الخطوة.. وبدل ماكنتي بتبعتيله على «صراحة» وهو مايعرفش مين اللي كان بيبعت،

وبدل ما انتِ خدتي رقم «خلود» بنت عمتك وكلمتيه «واتساب»، أكيد هو افتكر ساعتها إن خلود هي اللي عملت كدة.. روحي كلميه على الأقل تكوني عملتي اللي عليكِ واللي يرضي ضميرك، مش مهم بقى ردة فعله هتكون إيه أو ازاى.. انتِ روحي وسلّمي عليه واسأليه لو عجبِته الرواية ولا لأ، خُدي الرواية حِجّة للكلام بمعني أصح.. وبعدها اشكريه وسيبيه وامشي.. بس كدة!.. الموضوع سهل.

***

استمررتُ بالقراءة وكأنني ألتهم سطورها في لهفه، رفعت رأسي ناظرًا أمامي؛ فوجدتها وصديقتها ينظران لي ويتحدثان بصوت منخفض؛ فتحوّلَت أنظاري لها وقُلت بداخلي في ارتباك:

– إيه ده؟! يا ترى هي واخدة بالها مني من امتى؟ طب أعمل إيه دلوقتي بقى.. ده أنا لسّة بشوف اللمعة اللي في عينيها زي ما كنت بشوفها زمان.

تقدمتُ خطوتين وأنا لا زلتُ أنظر لها وكأن عيونها جاذبية تجذبني إليها.. ثم توقفتُ مجددًا، أما هي فنظرَت إلى الأرض وابتسمت ابتسامة خجل، وفي تلك اللحظة تيقنتُ أنها تنتظر المبادرة، وقتئذٍ قد ذهبَت صديقتها إلى باقي أصدقائهم؛ فأخذتُ قرارًا بداخلي أن أذهب إليها دون التطرق للتفكير في العواقب! فانجذبتُ إليها ممسكًا بروايتها بين يدي، وعندما اقتربتُ منها وأصبح لا يفصلنا عن بعضنا البعض سوى خطوات قليلة قولنا في نفَس واحد:

– ازيك يا أدهم.

– ازيك يا إسراء.

***

وبعدما كنا قد غرقنا بالنظر إلى بعضنا البعض تمتمتُ إليها بصوت منخفض:

- اشتريت روايتك.

ولكنها لم تسمع كلماتي الخافتة؛ فطلبَت تكرار كلماتي وبصوت عالٍ؛ فقُلت لها وأنا متأملٌ بكتابها الذي كنت ممسكًا به بين قبضتَي يدي، ثم ابتسمتُ ورفعتُ رأسي، وقُلت لها في اهتمام:

- إسراء!.. تعرفي؟!

أومأت برأسها علامة النفي، ثم قالت باستغراب:

- نعم؟

فقُلت لها بارتباك:

- تعرفي إن أنا أيام ثانوية كنت لما ببقى قاعد قدام في الصفوف الأولى وتحصل حاجة ملفته للنظر ورا ألتفِت وأقعد أبُصّ إيه اللي حصل والصوت والدوشة اللي سامعها ورا دي.. ففي لحظة ما بلتفت تاني وأعدل راسي وابص قدامى.. عيني أحيانًا كتير كانت بتيجي عليكي انتِ وصاحبتك رحمة دي، بس كنت بتجاهل الحقيقة، كنت بقول إنها نظرة خاطفة كدة وأنا بعدل دماغي.

تغيرت ملامح وجهها وكأنها قررَت أن تظهر جزءًا من جديتها بالحديث، ولكنها نظرَت خلفي، ثم نظرت إليّ مرة أخرى وهمست في قلق:

- بعيدًا عن كل الكلام ده.. بس في جملة مافهمتهاش.
- إيه هو اللي مافمتهوش وأنا أشرحلك قصدي؟!

- انت قولت يا أدهم نظرة خاطفة، يعني إيه نظرة خاطفة مش فهمت دي!.. وليه نظرة خاطفة؟!

تحدثتُ بتلقائية وقُلت بصدمة:

- ها؟! أصل أنا كنت أعرف اسم رحمه صاحبتك، وكنت بسمع أسامي الناس اللي معانا، بس فيه ناس كدة كانوا يتعدوا على الصوابع سواء كانوا ولاد أو بنات اللي ماكنتش أعرف اسمهم؛ فكان عندي فضول أعرف مين دول مش أكتر.

فابتسمتُ بصوتٍ عالٍ؛ فاستطردتُ وقُلتُ مداعبًا:

- تعرفي إن لغاية قبل الامتحانات بكام يوم بالظبط ماكنتش أعرف اسمك.. ساعة القلم لما وقع مني وانتِ كتّر خيرك وقفتيني وادتهولي ساعتها، أهو أنا بقى كنت ساعتها فاكر إن اسمك سارة :)

- .... (ضحك)

وبعد أن توقفت عن ضحكاتها الشاهقة العلو قالت مبتسمة:

- سارة! طب الاسم حلو أهو تصدق.

وبعد نظرة طويلة لها، قُلت والخوف يأكل شيئًا من عقلي الذي جاهد لترتيب كلماتي المبعثرة:

- هو ممكن أطلب طلب بس ماتفهمنيش غلط؟

صمتَت لدقيقة، وقالت بكل برود:

- اطلب بس لو عارف إنى هقدر عليه!

قاطعتُ كلماتها في ارتباك بقول تلقائي:

- ممكن رقمك؟

فنظرت إليّ نظرة استحقار، وقالت بعصبية:

- نعم! انت بتقول ايه؟

قُلت لها في لهفة، محاولة احتواء الأمر سريعًا:

- ثواني بس قبل ماتفهميني غلط، أنا كنت بس حابب إني بعد قراءتي لروايتك أحب أبلغك بالملحوظات إن وُجدت وبرأيي لو كان عندك استعداد تسمعيه!

وبعد تنهيدة طويلة لها وتردد قالت:

- تمام ماشي.

- اكتب (......)

نظرتُ بعيونها مجددًا، وقُلتُ لها بابتسامة رقيقة:

- إسراء على فكرة الرواية والغلاف تحفة ما شاء الله عليكِ بجد، أنا فرحان ليكِ جدًا إن انتِ شخص في السن ده وناجح زيك، بجد شيء يدعو للفخر إن أنا كنت زميل ليكِ في يوم.. ألف مبروك وإن شاء الله يدوم نجاحك ومن نجاح للتاني يا رب.. ربنا معاكي ويوفّقك يا إسراء.

ثم تركتُها وذهبتُ خارجًا لمعاودة طريق زحام النقل العام، وبعد ساعة كنتُ بمنزلي، ذهبت ودون حتى أن أتطرّق لفعل شيء سوى أنني أغلقتُ باب غرفتي وبدأت بقراءة كتابها.

***

وبعد أن ذهبَ بعيدًا كان قلبي سيتوقّف من شدة الفرح، وقُلت بصوت عالٍ:

- (Yes).

ثم استعدتُ تركيزي بعد أن ربتَت صديقتي على كتفي قائله بابتسامة سبقتها غمزة:

- احكي لي حصل إيه؟ ها ها بسرعة يلّا قولي.

- اهدي يا بنتي فيه إيه؟ ماحصلش حاجة يخرب بيتك ده انتي فصيلة .

فقالت رحمة بفضول:

- طب قول يا جميل.

وحين قررتُ أن أفيضَ بمشاعري وكلماتي التي خبأتها معه بداخلي، وفي لحظة بداية حديثي قد تجمّع أصدقائي والْتفُّوا حولي، وكأنهم كانوا يراقبون الموقف عن قُرب.. فقالوا فى وقتٍ واحد:

- احنا هنمشي يا سوسو..

فقالت أحدهم في اهتمام:

- هبعتلك «واتساب» تحكي لي إيه حصل.

والأخرى هَمّت إليّ وأردفت مندهشة:

- إسراء، الشخص ده مش غريب عليّا.. حاسّة إن أنا شوفته قبل كده، هوكان عايز منك إيه؟

والأخرى نظرَت إليهم جميعًا نظرة عتاب، وقالت بجدية:

- خلاص يا بنات مش وقته.

فنظرت إليّ وقالت:

- إسراء، احنا هنمشي يا حبيبة قلبي، لو عوزتي حاجة كلمينا.. ولو عوزتي برضو تحكيلنا اللي حصل برضو براحتك يا قلبي، خلّي بالك من روحك، وألف مليون مبروك تاني يا روحي، ومن نجاح للتاني يا رب.

ثم نظرَت إليهم وهم يستعدون للرحيل، وقالت لهم في امتنان:

- يلّا يا بنات نمشي.

فقالت رحمة بنبرة حزن:

- أنا آسفة يا حببتي بس لازم أمشي برضو.

فضمّتني إليها، وقالت بهمس:

- مش هسيبك غير لما تحكي لي اللي حصل.. وبالتفصيل، واخده بالك.

ثم ابتعدَت، وقالت بصوت مسموع:

- ألف مبروك يا حبيبة قلبي، وعقبال الرواية التالتة والرابعة والخامسة وأشوف كتاباتك ماليه الدنيا كلها، أنا بفتخر بيكي دايمًا.. بفتخر إن انتِ صاحبتي.. ربنا يوفقك يا رب يا «إسو».

فنظرتُ وتحدثتُ لهم بجدية مصحوبة بابتسامة أمل وقُلت:

- أنا مابحبش أقول شكرًا، بس أنا لو فيه كلام أعرف أوصف اللي في قلبي ناحيتكم كنت قولته. شكرًا ليكم بجد ويا رب تفضلوا سندي وجنبي، أنا بجد بحبكم قوي ربنا مايحرمناش من بعض أبدًا.

وبعد يوم شاق وطويل وقد انتهيت من حفلة التوقيع الخاصة برواياتي، لم أُخفِ سعادتي بهذا اليوم المعبّأ بالمفاجآت الأكثر من رائعة، خرجتُ خارج المعرض حينما اتصلَ بي والدي يخبرني أنه جاء ليأخذني معه. جاء بعد مروروقت ليس بطويل، أخذ يسأل عما حدث. كنتُ أشعروأن طاقتي قد استنزفت. فلم أجِب على أيٍّ من أسئلته. ربما تفهم ذلك.. وفور وصولي للمنزل أغلقتُ باب غرفتي خلفي وخلدتُ للنوم.

***

استيقظتُ على صوت أذان الفجر؛ فقمتُ بعدما كنت نائمة على سريري، ذهبت لغرفة أمي حتى نذهب سويًا للصلاة، ولكنها لم تعطِي لي أي اهتمام؛ فقُلت باستغراب:

- انتِ مش هتقومي تصلّي معايا ولا إيه؟

ولكني لم أجد منها أية إجابة سوى الصمت، ثم التزمتُ الصمت وكأني لدي كلام يكفي لصُنع طوفان، وتركتها وهي على طرف سريرها وذهبت لأتوضأ، ومن بعد ذلك ذهبت وكأني أستحضر قوى جسدي بجميع أفعالي وكلماتي وسوئي وفرحي وحزني وانكساري وخيبتي لمواجهة خالقي بكل خشوع، ثم قمت بتأدية الصلاة، أخذت قرارًا أن أدعو له بالغيب، في الحقيقة منذ أن رأيته وأنا لم أكُفّ بالدعاء له في صلاتي.

***

« بعد مرور أسبوع»

جاء صوتُ أمي فزعًا وهي تفتح باب غرفتي، وتقول بلهفه:

- إسراء.. اصحي، أبوكي اتصل وبيقول إنه جايلك عريس وطلب إيدك منه!

قمت من فوق فراشي ونظرتُ لها نظرة تساؤل، وقُلت لها في اضطراب:

- نعم!.. عريس مين؟ ومين قال إن أنا عايزة أتجوز؟

لتجيب أمي بابتسامة عفوية وهي تقول:

- نقول مبروك بقى ولا إيه يا جميل؟

قاطعتُها بعدما أومأتُ برأسي علامة الرفض، وقُلت في عصبية:

- أمي عريس مين ده؟ وبعدين هو أنا جيت طلبت منكم أتجوز.. ولا انتوا عاوزين تخلَصوا مني وخلاص مش فاهمة أنا! بصي قوليله العروسة رافضة.. أصل أنا مستحيل أتجوز جواز الصالونات ده، قال عروسة قال!

وبعد أن ساد الصمت قليلًا همّت أمي للخروج، وقبل أن تتجاوز عتبة الباب الْتفتَت ونظرت إليَّ في تمعن وكأنها تستعد أن تلقي بورقتها الأخيرة:

- نسيت أقول لك إن اسمه أدهم.

ثم أغلقت الباب خلفها وأنا لا زالت أنظاري تستقر بمكانها في عدم

استيعاب، قد رنّت في أذني كلمتها (أدهم)، وبعد أن استعدتُ تركيزي همَمْتُ من مكاني مسرعةً إليها في فضول كبير، دخلتُ عليها وهي تجلس على الأريكة بالصالة لأجلس بمحازتها؛ فتنحنحتُ وقُلت لها في ارتباك:

- ماما.

لتنظر إليَّ نظرة اندهاش، لكنها لم تجِب لتستكمل مشاهدتها للتلفاز، فاستطردتُ وقُلت في هدوء:

- احكيلي بابا قال لك إيه.. ومين ده؟!

- أبوكي قال إنه طلب إيدك وهو تحت البيت النهاردة وهو رايح الشغل، أبوكي كان بيضحك وهو بيحكيلي بيقول افتكرته مجنون، بس لما سألته واتكلمنا دقيقتين لاحظ إنه عاقل وكلامه موزون جدًا، هو قال لي إن بعد بكرة هيجيب أهله.

تركتُها دون إبداء أية ردة فعل، ذهبتُ لغرفتي وأغلقتُ خلفي الباب، وجلستُ على طرف سريري وكأنني قد بدأتُ أذوب مع تفكيري، سرحت للحظة ما إذا كان قد استجاب لندائي الخفي الذي لم ألفظ له بلفظٍ، حتى وإن كانت لمرة واحدة! وحتى إن كانت لدي قدرة على الكتمان؛ فالعيون كانت تُفصِح عن كل شيء دائمًا؛ فكتمان المشاعر يهلك الروح بالبطيء.

تجولتُ بي أفكاري لتأخذني ما إذا كان فعلَ ذلك حبًا أو فقط لتعويض ما فقده من مشاعر وونَس، حتى أنني فكرتُ ما إذا كان لا زال يفقد خلود -ابنة عمتي- أهل لا تزال تسكن بقلبه وتتخذه مأوًى لها؟! كما أراها تسكن ملامحه الصامتة؛ فالماضي مؤلم حقًا.

ولكن ما إذا لم تحاول أن تجد نفسك بالحاضر؛ ستفقد نفسك ما

بين الماضي والحاضر، يستقربك الحال أن تقف بالمنتصف، ما بين تريد ولا تريد.. إلى أن تتأقلم مع الوضع، بالرغم من ذلك أرى في النهاية أن الحب سبب جيد لينهار معه كل شيء.

***

سرحتُ مع أفكاري للحظات، كانت الفكرة مرعبة بعض الشيء، أعلم أن لدي مشاكلي الخاصة وضغوطات من أهلي، ما إذا كان قد حان وقت الزواج أم لا.. أعلم أن البنات في سني أحلامها وآمالها كله ينصبّ نحو الحب والزواج، لكنني قد أصبحَ عقلي مشوشًا الفترة الأخيرة، لم أعد واثقة في شيء، كانت الفكرة تميل إلى رفض كل ما هو حولي؛ فكأن الأمر أشبه بأن تظهر أمام الناس بكل هدوء، ثم تنفجر فجأة لأسباب تافهة، ثم تعود لهدوئك وكأن شيئًا لم يكن، تجتاحك نوبة بُكاء لكنك لا تبكي، ثم تقرّر أخيرًا أن تتحدّث؛ فلا تجد أي كلمة تصف ما تعاني منه، أنتَ لستَ حزينًا لكنك لا تشعر أن شيئًا ما ينقصك.. التفكير مرض، ربما أنت فقط مُصاب بلعنة التفكير، الأمر قد صار كما خططتُ لأحلامي الخاصة التي قد بدأتُ بها منذ فترة وجيزة، لا أعلم كيف ومتى تعلقتُ به بتلك السهولة والسرعة، لم نتحدّث بحياتنا إلا لدقائق معدودة، حتى ابتسامته وصورته منذ أيام دراستنا لم تفارق خيالي منذ ذلك اليوم.. قد أظهرتُ لهم أنني لا أهتم، ولكن الحقيقة أنها كادت أن تقتلني فرحًا، وبعد كل ذلك.. ارتميتُ على سريري من جديد أنظر لسقف غرفتي، تمكنتُ من حبس دموع الفرح بداخلي، شعرتُ وكأنني أريد الاحتفاظ به لنفسي فقط ولا أشاركه لأحد، همستُ باسمه في صوت لم يسمعه أحد غيري، وكأن نبضات قلبي تردّد خلف شفتي باسمه.. أدهم.

***

منذ أن أخذتُ قراري هذا قررتُ أيضًا أن أجعل الأمر سهلًا عليها بعض الشيء.. أخذتُ أكتب عن حياتي، أجيبُ عن كل سؤال قد تفكّر به، حتى وإذا لم تفكر كنت أشعر وكأنها بجانبي، في وقت ما أن بدأتُ أكتب كنت أشعر بأن يُحاصرني في المنام كلامي، كلامي الذي لم أقُله يومًا.. كتبتُ لها اعترافات؛ حتى تعرف مَن أنا بشكل مُبسّط، دوَّنْت لها كل شيء، وسوف أعطيها لها حين أراها، كتبتُ لها كيف كنتُ أبدي عتابي، تجاهلي، سخريتي، غضبي، حزني، مشاعري، وفرحي بالكتابة؛ لذلك أصبحَت الكتابة وسيلتي للبقاء على قيد الحياة.

اعترافات

«بالكتابة أصبحنا أصدقاء لبشر لم نلتقِ بهم أبدًا.»

(١)

البدايات تحكم دائمًا..

«يبدو أنَنا ضُعفاء أمام حبنا الأول من كل شيء، أول أغنية أحببناها، أول نظرة غرقنا في تفاصيلها، أول نوع حلوى أُغرمنا به، أول كتاب هِمْنا في تفاصيله، أول فيلم شاهدناه ألف مرّة، أول مادة دراسية شغفنا بها، أول نبضة قلب لإنسان آخر، حبًا كان أم لا، دهشتنا الأولى تجاه الحياة لا تعوّض، فنظلّ أبد العمر متعلقين بتلك التفاصيل التي ساهمَت في بنائنا عبر الزمن مخلصين لها، أو ربما لبساطة قلوبنا أمامها، أو ربما لمعرفتنا أنها تختزن جوهرنا وحقيقتنا الأولى»

***

الحقيقة هي أن القصة عمرها ما كانت بالبدايات بذاتها «البدايات لازم تكون جميلة» القصة متعلقة بمين اللي هيقدر يكمّل معاك المشوار لنهايته بنفس لمعة العين، بنفس درجة حُبّه ليك، بنفس درجة ثباته رغم تحديات الحياة اللي هتواجهكم، بنفس الرغبة في إنه يكون السند والفرحة في حياتك، بنفس اللهفة لما بيشوفك، مهما عدّت بينكوا شهور وسنين، في الآخر مش أي حد بيقدر يكمل المشوار للآخر، وغالبًا محدش بيكمّل غير اللي بيحب بجد.

***

(٢)

عندما أحزن.. أعتزل الناس.. ممسكًا بقلمي.. مستمعًا لموسيقاي المفضلة.. وأبدأ بالكتابة عنك؛ حتى أشعر بالارتياح.

لطالما أحسَسْتُ بالحقد تجاه أولئك الذين يحسنون استخدام الحروف والكلمات في صالحهم، من يدعونهم بالفصاحة والبلاغة، أولئك الذين متى أحسُّوا بشيء ترجموه إلى الورق.. متى أحسوا بشيء نقلوه لغيرهم ليشاركوهم فيه. لطالما أحسستُ بالجهل متى حضروا.. يناقشون ويحاورن ويجادلون بكل سلاسة، ولا يُعِيرون أدنى اهتمام لتلك المعركة القابعة في رأسك والأفكاروالكلمات المبعثرة التي تخرج في صورة من العشوائية تدلّ كل الدلالة على بلاهة صاحبها، والتي لو رُتِّبَت على يد أحدهم لصعقوا من قوة هذه الأفكار التي تتناسب مع هذا اللسان الأبله الأرعن.

***

(٣)

« فَكيفَ تكفُ الروحُ عن الروحِ، والروحُ في الروحِ تُقيم.»

« مش موجودة، ولكن..»

عايز أعترفلك بحاجة، تعرفي أنا مابرضاش أعرف بنات عليكِ بالرغم من إنك بعيدة عني ومش برضى أخونك في الغيب..

عارفة: أنا مابرضاش أجيب سيرة أي بنت بالسوء عشان ماحبش إن حد يجيب سيرتك...

طب عارفة: انا لما بمشي في وسط بنات بكتِم نَفَسي عشان أخاف واحدة فيهم تكون حاطة برفيوم زي جمال البرفيوم بتاعك؛ فيخليني أعتقد إني خونتك..

طب عارفة: إني دايمًا بغُضّ بصري وقلبي مقفول عليكِ انتِ ومفيش بنت غيرك بتملَى عيني...

طب عارفة: في عز اللّمة مع صحابي بفكّر فيكِ، وأبتسم رغم إنك مش معايا..!

عارفة: « انتِ وحشتيني..ومفيش في قلبي غيرك»

أنا أشهد والله إنها ستّ البنات وعمرها ما غلطت في حقي وماشوفتش منها إلا الخير، ووقفِت جنبي واستحملِت عصبيتي ونرفزتي ومعاملتي، بس النصيب سَبَق بقى وربنا أراد، ربنا يسعدك ويرزقك باللي أحسن مني، هتفضل سيرتك بالخير وتوبِك نضيف وسِرّك متصان.. الله يهنيكي.

***

(٤)

نحن بحاجة لشجاعة الحذف: حذف التفاصيل.. حذف الماضي.. حذف الرسائل.. حذف الأصوات.. حذف الحنين.. وحذف بعض الأشخاص أيضًا.

وودي آلن

إلى كل العابرين في حياتي.. إلى أصدقائي الذين عرفتهم وتحدثت معهم لسنين وأشهر، والآن لا أعرف عنهم شيئًا.. إلى جميع من وعدتُهم ولم أوفِ بوعدي لهم.. إلى ذلك المكان الذي سقطتُ فيه يومًا من الأيام وكرهته.. إلى تلك الصور التي جمعتني بأناس أصبحوا الآن غُرباء.. إلى تلك اللحظة التي قُلت فيها لأحدهم كل عام وأنت معي ولم يبقي.. إلى تلك الخنفشارية صاحبة الروح الجميلة التي أدمنتها ولم تفارق كياني.. وإلى تلك التي كنت لها قصة في مجرد كتاب حتى أفنَتني.. أنتم بعض التفاصيل الصغيرة التي لا أستطيع حذفها من ذاكرتي.

***

(٥)

«وَقالَ إنا بِرغمِ الحُبّ نَفْتَرِقُ.»

في مرحلة من عمرك سوف تدرك أن البعض سيبقون في قلبك، لكن ليس في حياتك.

فمنذ أن رحلتِ وأنا أكتبُ لكِ في نهاية كل عام يَمُرّ على رحيلِكِ.

فغالبًا تكون الخيبات من الذين قدَّمْنا لهم كل شيء، في الحقيقة لن يُؤذيك مَن تتوقّع منه الأذى! سيُؤذيك من كان أمانك؛ فبعض الصدمات التي تمرّ عليك وظيفتها تعديل نظرتك للأشخاص في حياتك وإعادة ترتيبهم حسب الأولوية بالطريقة التي يستحقها كل واحد منهم.

لكن في النهاية سأعترف لكِ:

- بأن فاقد الشيء يكتب عنه، وأنا أكتب عنك كل يوم، أعترف بأن هذه الليلة دونكِ كئيبة.. ولا يسعني إلا الكتابة عنكِ؛ حتى الكتابة أصبحَت مُوجِعة بعض الشيء.. أعترف بأن لازال بداخلي الكثير من المشاعر تجاهك، ولكني أخاف أن أكتب لكِ عنها؛ فشيء منها أني افتقدتكِ! فربما تلك الأشياء الزائفة هي من جعلتني أكتب، وبالفعل هي تستحق التدوين.

***

(٦)

«القوة ليست دائمًا فيما نقول ونفعل، أحيانًا تكون فيما نصمُتُ عنه.. فيما نتركه بإرادتنا، وفيما نتجاهله»

نيسلون مانديلا

أنا لسه ماقابلتش النوع اللي ممكن يضحي عشاني بحاجة.. والاغلب انا اللي بضحي براحتي النفسية ووقتي وأي حاجة أقدرعليها.. يعني علي أمل إن الحاجات دي تتقدرأو تتلاحظ علي الأقل وفي الآخر بتلاقيني ضحيت بكل ده عشان ولا حاجة.! فالجميع بيغادر بحاول أتعايش مع وحدتي.. فأنا مستغني كل الغني عن السؤال الباهت.. والاعتذار المتأخر.. الاهتمام الكاذب.. ووسطية المشاعر.. وتصنع اللطف والود.. وأصحاب الوجوه المتعددة...

«مستغني كل الغني عن الرسائل الإلكترونية،فلا تعجبني فكرة ان هناك عشرة أشخاص يحبوني،فقط كل ما أحتاج شخص واحد أستطيع ان أبكي وأسقط أمامه دون خجل أو حرج،فربما حُب أحدهم عبارة عن نقطة ضعف،فقد تكون أجمل نقطة ضعف في العالم،ولكنها تظل نقطة ضعف.»

***

فخليك أكبرمن أنك تخسرحاجة فتكتئب.. خليك أكبربقا وبطل

ترتب حياتك وفرحتك وزعلك علي حد.. أكبر وبطل تهتم بناس مش فكراك ولا معمول حسابك في يومهم..

أكبر وخلي اللي يسيبك يندم عليك وأوعي تفكر في يوم فات اوعي تفكر في حاجة اتمنيتها وراحت وإنتهت..

خلي بكره قدام عينك وقرب وإهتم من اللي بيقرب منك.. أما الباقي فردلهم التحيه بس.. ومن بعيد كمان.. امسك بس في الناس اللي بتلاقيهم جنبك وقت ضعفك.. حتى لو رسيت علي شخص واحد بس.. امسك في الناس اللي ماسكة فيك.. في الناس اللي عارفين أهميه وجودك في حياتهم.. في الناس بيحبوك «بالافعال» مش بالكلام.. في الناس اللي بتلاقيهم جنبك وقت ضعفك.. اقفل دايرتك علي كدة.. والباقيين يادوب إعملهم «باي» من بعيد من باب الذوق مش أكتر.. وإفتكر كويس اللي عاوز يعمل حاجة بيفضل يلف ويدور حواليها ويدور علي ألف سبب ومخرج عشان يعرف يعملها.. واللي نفسه يحافظ علي حاجة ويكملها بيقدر يحافظ مهما كانت الظروف حتى لو في حرب.. لأن دوافع الرغبات أقوي من الظروف.. الحجج والمبررات العظيمة والتافهه مبتطلعش غير من إنسان معندهوش أي رغبة في الإستمرار...

***

(٧)

لا تكن سخيفًا...

لا تكن سخيفًا عندما تقوم بالإسفاف على نفسك.. فبالأمس فكرت؛ ماذا لو تخطّيتُ كل هذه المعاناة؟ ماذا لو كنتُ سأضحك على الألم الذي يُحطّمني الآن؟

وبعد تنهيدة طويلة تحدثتُ إلى نفسي وقُلت:

أرجوك لا تستهِن بألمك.. لا تستهين بالوقتِ الذي قضيتَه تتقلب فيه وجعًا في محاولة منك إخراج المواضيع برأسك.. لا تستهِن بالأرق الذي كان يُلازمك.. لا تضحك على الوقت الذي قضيته في الشعور بالذنب، تضحك على نفسك القديمة! أرجوك لا تكن سخيفًا؛ فتذكّر أنها كانت تُعاني حقًا في وقتها، مهما بدا لك الأمر سخيفًا الآن قَدّر نفسك القديمة.. بالرغم من عدم تقديرها لنفسك حتى!

(٨)

الجزء المحذوف من كلماتنا، النظرة التي نحتفظ بها حتى نستدير، الأحلام التي لا نُخبر عنها أحدًا.. هي نحن في الحقيقة.

طالما تهيَّبتُ هذا الجزء من الطريق، ففيه أكون طفلًا مجردًا يقف وحده وسط فضاء لا محدود، تحيط بي سكَك متفرعة ومتوازية ومتقاطعة وممتدة إلى ما لا نهاية، يلوح لي أفق بعيد مفتوح، منه تبزغ قطارات آتية من العدم، وإليه تتجه ذاهبة إلي المجهول.

يُحصّلُني أبي فيمسك يدي ثانية، وأستعد لأخوض معه البحر: بحرٌ مَوجُهُ من حديد وقضبان، وقاعُه من زلط وحصى، يخطو أبي على موجِه ببساطة موجة موجة، أما أنا فأقفزها ممسكًا بيده، أما قاعه فيصعب الدّوْسُ عليه بالأقدام، لا سيّما قدم طفل، فكان أن أرشدني أبي إلى العوارض البيئية بين كل قضيبين.. حين أخبرني اسمها أول مرةٍ تلقيتُهُ مُستعظِمًا إياه: ((فَلَنْكات!)) وكأنه سر لا يدري به إلا العليمون والواصلون، وأبي يستأمنني عليه، أقفز من فلَنْكة إلى فَلَنْكة، قفزات مضبوطة على مسافات الفلنكات؛ فيأسرني مع التكرار الإيقاع.

أُسْلِمُ نفسي إلى إيقاعها كما أسلَمتُها من قبل إلى مَيلان خلفي الآن! فأجمْلُ وَأسَرِعُ من إيقاع قفزاتي، مع ثقتي في أن أبي جانبي، سيتدخل لو لزم الأمر؛ لذلك أحيانًا نحتاج أي سبب للبكاء، ولو كان صغيرًا جدًا، ولو كنا أغبياء جدًا، لنعوضْ فيها كل الخيبات التي لم نستطع البكاء

فيها، ولا عليها؛ لأن البكاء حينها كان سيكون مهينًا جدًا، وكان علينا أن نكون أقوياء.. نحتاج وجعًا بسيطًا؛ لننهار بعده دون أن يسألنا أحدٌ عن كل هذا، فإنّ من بُتِرت أطرافهم يعانون لفترة طويلة الشعور الوهمي بها، ويحرّكُون أصابع لا وجود لها، ويشعرون بملمس أشياء لم يلمسوها، وهو ما يسمّيه الجراحون باسم الطرف الشبح، هكذا بُتِرتِ أنتِ من حياتي، لكنكِ بشكل ما.. ما زلت هنا.

(٩)

طبعاً كلنا بنمر بفترة سيئة الفترة الأخيرة، عايشين وكأننا بين ماضي مرعب وحاضر مشوّش ومستقبل مجهول.. أكيد بيمرّ عليك وقت بتحسّ فيه إنك سيء، كئيب، مشوّه، متردّد، حزين، منكسر... بتحسّ وكأن شغفك بالدنيا راح، بتمرّ عليك الأيام في تسلسل وروتين يومي، بتحسّ وكأنه بيمر عليك بس علشان هو لازم يمر، هاخد من وقتك دقيقة كدة بس عايزك تفكّر وتنفرد بنفسك دقيقة كدة! وعايزك تجاوب على أسئلة أنا مش لاقي إجابة ليها لغاية دلوقتي:

- إيه هو السبب من وجودك؟ إيه هو حلمك؟ وليه لازم يكون عندك حلم؟! طب إيه وليه يخلّيك كدة سَايب نفسك في النص وكأنّك عايز الشيء ونقيضه! شايف إنك تستحق كل ده؟!

أكيد لا.. ومحدش بيحب يكون كدة، عايزك تعرف حاجة جواك مش حاسِس بيها؛ وهي إن عقل الإنسان يحتوي من «١٠٠ : ١٥٠» مليار خليّة عقليّة؛ يعني انت لو فضِلت تكتب فيهم هتمُوت انت وأولادك... انت لازم تعرف إنك أحسن مخلوق عند الله سبحانه وتعالى «لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » ربنا ما قالش «لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي تَقْوِيمٍ» لا.. دا قال «فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»، متخيّل روعته سبحانه وتعالى.. طب تخيّل انت يا اللي مش عاجبك شكلك ودايماً بتقول أنا وِحش وشكلي وِحش.. وأنا.. وأنا.. طب انت متخيّل إنك

بتتّرْيَق على نعمة ربنا اللي أنعمها علينا.. دايماً بنقول الرضا أهم من الفلوس! طب فين الرضا هنا عن نفسك؟ فين تقبّلك لنفسك وحبك لنفسك؟! حِبّ نفسك زي ما انت؛ لأن يمكِن انت لو فكّرت للحظة هتلاقي إن جوّاك مميزات مش عند غيرك، يمكن انتِ قصيّرة شويّة بس دمك خفيفة، يمكن انتَ رفيّع بس عندك الشخصية القيادية وشخص مسؤول يُعتَمَد عليه دايماً.. دايماً بقول إن الإنسان لو تقبّل نفسه زي ما هو كل المؤثرات الخارجية -مشاكل وتجارب- مش هتأثّر فيه بالحجم المَهُول، شخص بيحكي ويقول أنا خسرت صديق وفقَدت حبيب -بُعد أو موت- وحاسِس إن الدنيا وقفت.. أنا عارفك كويس قوي.. أيوه أنت يا اللي بتقرأ ركز كويس واسمع الكلام ده ليك انت؛ عايزك تعرف إن من أهم الحاجات والمتطلبات اللي لازم تواجدها في دورة حياة الإنسان وهي «التعلم»، الإنسان وهو عنده ٩٠ سنة في سن مفترض يكون فاهم وعنده خبرة في الحياة بيغلَط!.. طبعاً ما هو كلنا بشر وكلنا بنغلَط، بس الشاطر اللي يتعلم من أخطاءه.. إيه يعني فقدت شخص عزيز عليك.. الدنيا وقفت حواليك؟! .. يقولي «لا بس قلبي واقِف من لحظتها» عايز أقولّك وإيه يعني؟ آه والله زي مابقولّك إيه يعني؟ دخلت مرحلة حبيب واتحبّيت، عشت لحظات سعيدة، علّمتَك كتير وازّاي تكون سعيد لنفسك قبل غيرك.. حتى أوقات حزنك دي علّمتَك معنى الحب والفقدان والخذلان، حتى معني الخوف اللي بينبع من أهميتك عند الشخص.. حاجات كتير جداً.. بس قولّي لو عاد بيك الزمن هتندَم إنك عملت كدة؟! يقولي «لا هعيش اللحظة تاني» طب انت إيه مشكلتك؟! اتعلّمت واستفدت من تجارب حياتك؟ اتعلمت ووقعت في الغلط مع الشخص الغلط؟ أصل ده كله مش صُدفة، مفيش حاجة اسمها صدفة، أصل الغاية من كل ده إنك تتعلم علشان لمّا يجِي الشخص الصحّ في الوقت الصح تعرف تتعامل

معاه كما يليق بكم.. وهتعرف النتيجة والسبب من كل ده بعدين، مفيش حاجة اسمها صُدفة، انت قابلت شخص ما لسبب ونتيجة، اللي حصل بينكم ده لسبب هتعرفُه بعدين، ساعتها هتعرف «إن كان خيراً لبقِي» ساعتها هتفتكر جملة واحدة في دماغك «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ» اصبِر.. تدابير ربنا أحسن بكتير من اللي ممكن نتوقّعه.. اصبر واطّمّن كل ده بيكون شخصيتك، اصبِر واشتغَل على حلمك، اشتغَل على الأسباب دايماً.. لغاية ما هتلاقي نفسك تدريجياً بتعيش حلمك، ساعتها بص على النتيجة، صدّقنِي هتفرح.. ها جاهز تعيش حلمك؟ طب لو حلم راح؟ مش مشكلة احلَم بغيره وخطّط ليه وحُطّ ليه احتمالات حدوثه من عدمه.. وعيش بمبدأ واحد بس في حياتك؛ وهو إنك تعيش اللحظة وكأنه آخر يوم في حياتك؛ لأنه فعلاً ممكن يكون آخر يوم ليك.. عايز أقولّك حاجة: ما هو مش معنَى إنك فشَلت مرة تحطّ عنوان الفشل ليك في حياتك.. مش معني إنك فشلت في يوم ده معناه إنك فاشل، لا بالعكس نهائي؛ أصل الفشل ده جزء من النجاح.. طب عندك ناس كتير فشلِت وعاشِت تحاول، ممكن بتسقط وتفشل.. إيه المشكلة؟ بيقوموا ويقوّموا نفسهم مرة تانية ويوصَلُوا لمشكلة فشلهم ويعالجوها، مثال على كلامي:

العالم توماس أديسون مخترع المصباح الكهربائي.. تعرَف انت يا اللي بتقول زهِقْت وتعِبت وفشَلْت من تاني محاولة الراجل ده جرّب وحاول كام مرة؟.. «٩٩٩ محاولة فشل» انت متخيّل الرقم أصلاً؟!.. متخيل؟! ده واحد عنده حلم، عنده دافع مش سايِب نفسه للإحباط والانتقادات.. ناس كتير قالت عليه مش هينجح.. طب والنتيجة؟! في النهاية.. إنه عاش حلمه وحقّقه، ودلوقتي احنا عايشين تحت حلم كان في يوم مجرد فكرة.. طب انت إيه يميّزه عنك؟! انت زيّك زيّه... الفرق إنه صدّق نفسه واشتغل على نفسه.. انت كمان تقدر فعلاً تعمل كل

حاجة، فكّر في حلمك وقول ممكن.. ممكن.. ممكن.. هتحسّ بالرهبة جوّاك، كرّر ورايا.. ممكن.. ممكن.. ممكن.. ممكن.. أصل مافيش حاجة في الدنيا اسمها فشل.. عندَك حلم؟ اشتغَل عليه علشان تحققه؛ لأنك فعلاً تقدر تعيش حلمك.. ها قول لّي دلوقتي إيه هو حلمك؟ جاهز علشان تحققه؟ أنا متأكد إنك تقدر.. مستنّي أشوفك ناجح.. ها جاهز؟!

(١٠)

وراء كل شيء لم يتحقق خير أرادهُ الله لك..

ماكانِتش صدفة إن ربنا يختبرك بتجربة صعبة؛ فقلبك يوجعك، فتصلي لربنا وتدعي إنه يهوّنها عليك.. ماكانِتش صدفة إنك فجأة تلاقي حياتك تتقلب رأسًا على عقب.. فتكون بداية لحياة جديدة قريّبة من ربنا أكتر.. ماكانِتش صدفة إنك تِضيّع حاجة منك كنت بتتمناها.. علشان ربنا كاتبلك الأحسن اللي هتكتشفه بعد كدة، ماكانتش صدفة لما جالك مشكلة؛ فتكشفلك ناس حواليك خاب ظنك فيهم، ماكانتش صدفة إنك تلاقي رسائل طبطبة من ربنا؛ فتحس إنها جاتلك في وقتها وكأن ربنا بعتها ليك ويقول لك أنا معاك.. بس انت اصبر، ماكانتش صدفة يختارك شخص.. علشان يحكيلك مشكلته؛ فتخفف عنه، وكأن ربنا بعتك ليه علشان يقول لك اشكر ربنا على اللي انت فيه، ماكانتش صدفة إنك تسمع آية وقت زعلك.. هي مش صدفة على قَدّ ما هي مواعيد وتدابير ربنا مقدرهالك، ربنا عارف إنك هتتحمل وهتقدر تعدي محنتك ومشكلتك، ربنا بيثبت فيك الصبر وإنك تكون واثق إن في خير جاي ليك، ربنا عاوزك تقرب منه وتلجأ له في عز ضيقتك.. اصبر.. واطمن.. وخليك راضي عن كل حاجة.. وربنا هيفرّحك فرحة ماكُنتش بتحلم بيها.

***

(١١)

سيُنير الله ما أطفأه الناس بداخلك.. اطمئن.

كل الأوقات العصيبة سوف تأتي، ولكنها لن تأتِي لتبقَى، بل تأتي لِتمُرّ تَاركة خَلفها درسًا كان لابُد لك من تعلمه؛ فكل الأمور المزعجة لم تأتِ لتبقى، إنها فقط تنفذ مهمة صناعتك.. تهيّئك وتقويك حتى تكون الشخص الذي لا يُكسَر بسهولة!

لكل شخص يقرأ:

إن كنتَ مطمئنًا بأيامك الحالية أتمنى أن تستمر هذه الطمأنينة دائمًا، ولو كنتَ حزينًا بسبب التحديات التي تخوضها بيومك فتأكد أنك أهلٌ لها، وأن لها جانب إيجابي برحلتك الحياتية، ربما تغفل عن إيجابياتها حاليًا، ولكن مستقبلًا ستصبح كل هذه الضغوط نقطة بداية لحياة أفضل.. ابتسم واطمئن.

***

لماذا تكتب إذًا...

أكتبُ لأنني لا أسعى إلى إبهار الناس بكتاباتي، أنا فقط أحاول جاهدًا إيجاد كلمات تصفُ مشاعري كي أتخلص منها؛ لذلك لا يهمني ثناء الناس أو انتقادهم، في الحقيقة أنا لستُ سعيدًا بما أكتبه على الإطلاق، ولكني لا أملك خيارًا آخر، أكتب محاولة أن يزهر الطريق الذي سلكته يومًا؛ لكي يتلاشى عني كل التعب.. محاولة لكي تشرق روحي بعد ذبول ظننته لن يزول.. لكي تلمع عيني بعد أن خفّ بريقها؛ فأنا أكتب محاولة لوصف مشاعري.. محاولة لكسر خوفي من فقدان الأشياء؛ فالخوف هنا هو حين تقول لأحدهم إلى اللقاء ولا تلتقون مرة أخرى.. أن ترى أحدهم يغادر أمامك ولا يعود أبدًا.. أن تتفقَ أن تكون قهوتك غدًا مع صديقك، لكن غدًا يأتي من دونه، الخوف أنك لا تدري من قد يغيب للأبد بعد دقيقة، إنني أكتب لنفسي محاولة مني تقييم نفسي من خلال تلك الكلمات التي تخرجِ مني بشكل عشوائي.. أكتب لأتحسن.. أكتب لأنني وجدتُ أن الكتابة أفضل وسيلة للتخلص من فيضان المشاعر التي تزداد يوميًا بداخلي؛ فربما تكون وسيلتي هي الكتابة، سأعترف بشيء ما.. فأنا ذاك الذي تدور الأفكار في رأسه الآن.. فأنتِ وراء كل حرف، فربما في كل قلب شيء لا يترجَم بحرف ولا بصوت؛ فأنا أكتب ليس من باب أن يُطلق عليَّ.. مؤلف / كاتب / روائي / أو حتى لقب «الحائز على..»، أنا أكتب لكَ وعنكَ فربما تراني شخصًا متناقضًا/ مغرورًا نوعًا ما/ كئيبًا، لكنها كانت في النهاية تجارب، أنا أكتب لتنمية ذاتي... لتنمية أفكاري.. أكتب لكي أنسى.. أنسى المآسي،

لكن شيئًا منها عالق بذهني لا يذهب مع الأيام؛ فهو لم يمرّ عليَّ مرور الكرام، فهو رحل وأخذ منها شيئًا لن تعوضه مرور الأيام؛ فأنا كنت واحدًا من أولئك الذين لا يعرفون كيف يُعبّرون عن حبهم؛ فيقتلونه، فنحن الذين لا نجد في الثمانية والعشرين حرفًا وصفًا لأوجاعنا؛ فنصمت، أتذكّر أنني سُئلتُ يومًا:

- من الذي علّمك الكتابة؟

فقُلت في ثقة:

- تلك اللحظات التي لم أعرف فيها ماذا أقول.. فأصمت.

نصيحة

« كُن أنت.. ولا تكن هُم.»

- لا تنتظر الفرصة، فإن لم تأتِ اصنعها.. عليك أن تتذكر أن الفشل ليس عكس النجاح، وإنما جزءٌ منه..
- نحن أقوياء، لا عليك من كلام المُحبطين، نحن نستيقظُ كل يوم لنعيش الحياة نفسها، في المكان نفسه، مع نفس الأشخاص، نستيقظ لِنقاوم المزيد مِن الحزن، والألم، والجنون، هذا بحد ذاته كِفاح..
- أنت قوي؛ لأنك لا زلتَ تحتفظ ببقايا طاقتك المستنزفة، لأنك تحاول أكثر من مرة إلى أن تتوقف، حينئذ يمكنك القول بأنك مستسلم، طالما أنك تحاول أنتَ لم تفشل بعد، حين تقع وتنكسر وتقف سريعًا تداوي جروحك، -هنا يكمن النجاح-، أنت لم تفشل طالما تسقطُ وتنهض في كل مرة لترمم ذاتك.. أقِم انهيارك لتكن أقوى دائمًا.

«لا تتوقف عن المحاولة، حتى وإن كانت محاولاتك السابقة باءت بالفشل.»

«اصبح عظيمًا لأجلك.»

Became Great for you....

...

انهمرَت الدموع إلى أن سقطَت على أوراق كتاباتي؛ فتبلّلَت بالكامل، ومنذ هذه اللحظة وقد قررتُ أن أكتب تفصيلًا لما حدث، فكنتُ أهرب من واقعي بالكتابة، وجدتُ بها نوعًا خاصًا من الإدمان، كتبتُ في ذلك اليوم فيما لا يقل عن الخمسة والعشرين صفحة إلى أن توقفتُ عند أول لقاء لنا، توقفتُ وقد سرحتُ لدقيقة ماذا لو أكملت كتابة ما تبقّى من القصة؟ فلكلّ إنسان ذكريات أحيانًا لا يريد أن يصرّح بها للجميع، وإنما لأصدقائه فقط، ولديه أيضًا أشياء أخري يخشى الإنسان أن يخبربها حتى نفسه، فهو يخزّنها في مكان عميق بذهنه، أو في قلبه الذي هو عبارة عن:

«قلب أي حد فينا ممكن يكون زي «الـ الميموري كارد».. بس الفرق إن فيه ملفات مابتتمسحش، بتاخد جزء من مخزونك وطاقتك وتفضل جواك، حاجات كدة مكتوبة بالجاف، ولا هتروح ولا هتعرف تشخبط عليها.»

فقد قررتُ مؤخرًا فقط، أن أتذكر مغامراتي الأولى، وقد كنت حتى الآن، حتى هذه اللحظة أحاول أن أتجنّبها بشيء من القلق، أما الآن، وقد قررت أن أذكرها وحسب، ولكن وإنما أن أكتب تفصيلًا لها، فإنني أحاول جاهدًا أن أجرّب إن كان الإنسان يستطيع -ولو مع نفسه- أن يكون صريحًا تمامًا، وأن لا يخشى من قول الحقيقة كاملة؛ فأنا أكتب فقط حتى أقوم بتقييم نفسي، فمن خلالها أستطيع أن أحسّن أسلوبي، وبالإضافة إلى ذلك فستنعشني الكتابة قليلًا، أتعلم؟.. سأخبرك سرًا، أنا لا زلتُ قلقًا ومضطربًا جدًا؛ وذلك بشأن تلك الحادثة التي من الماضي، فقد حَضرَت في ذهني بكل وضوح منذ أيام، وظلّت مستحوذة عليّ، فإذا أخذني الحنين يومًا إلى الماضي

فأجد بين كلماتي كل ذكرياتي الفائتة، إلى أن اختتمتُ كتابة الرواية بعنوان «قلب مُترّمِم».. فربما لم أنتهي من كتابة تلك القصة التي لم تنتهي أحداثها بعد، ولكني قمت بنشر ذاك الجزء منها فقط؛ مما قد ورَد بتلك القصة التي قررتُ ختامها بتلك الاعترافات؛ حيث لم أجد أفضل منها وصفًا لحالتي وختامًا لروايتي الأولى.. تاركًا ورائي بعض الأسئلة والتفاصيل التي تُركت عن قصدٍ، وذلك يعود بأن تلك القصة يعود جذورها إلى واقع وشخصيات كانت –وما زالت- أنفاسهم تتردّد على هذه الأرض، ولكنها لم تخلو بلمسة من الخيال.. ولكن قبل الختام أريد طرح سؤال عليك لم أصل لإجابته بعد...

لماذا الجميع في البدايات أجمل؟

إلى اللقاء.. على أملٍ أن نلتقي في عمل آخر.

تمت بفضل الله...

شكر خاص..

إلى بسـمة حيـاتي- جـدتي- تلـك السـيدة التـي تحمـل معهـا كل معـاني الحيـاة بالنسـبة لي، لـن أنسـاكِ مهـما يطـول الزمـان، الفضـل كلـه يعـود إليـكِ، فأنـتِ يـا عزيـزتي بطلـة حيـاتي.

إلى..

مصـدر تشـجيعي وفَخـرِي.. «أمـي - أبي»، سـتظلان أفضـل مـا رأت عينـي وقلبـي، أشـكركم لأنكـم لم تخذِلـوني لمـرة، وكنتـم بجانبـي حتـى لـو لم أطلـب ذلـك.. أعشـقكم.

إلى أخي..

الذي ساندني دائمًا ووثق بي في وقت كدتُ لا أثق بنفسي حتى.

إلى..

«رحمـة» حيـاتي.. قبـل لقائـكِ لم أكـن أعـرف مـا معنـى أن تنظُـرَ لِشـخصٍ واحـد و تكتفـي بِـه و كأنـهُ العـالم؛ فبعـضُ الأشـياء خُلقَـت لِتكـون هُدنـةَ سـلامٍ وسـط فـوضى هـذه الأرض.. كعينيـكِ و إبتِسـامتُكِ مثـلاً.

إلى..

«عبدالرحمـن عطيـة- أحمـد حجـازي- أمـير ماهـر- هـلا سـملك- حـور مصطفـى- سـمر مصطفـى- إسراء عصـام.»، أدعـو اللـه ألا تمـزق الأيـام صداقتنـا.. سـأظل أفتخـر بكـم وأحبكـم مـا دُمـت حيًـا.

وأخيرًا..

إلى أسـاتذتي الأفاضـل الذيـن أُكـنّ لهـم كثـيرًا مـن الاحـترام والتقديـر.. « أ/ رشـدي عـلي».. « أ/ سـيد عثـمان».. « د. سـمير بـدر الديـن».. شـكرًا.

للتواصل مع الكاتب

instagram.com/mostafa_rabe3_29